قراءات في الوثائق الفرنسية عن مدينة جدة

لا شكّ أنّ للوثائق الأجنبية أهمية كبيرة في إنجاز أي دراسة تاريخية أو حضارية. ولا غنى لأي دراسة تاريخية جادة عن كل ما اشتملت عليه الوثائق بكل مصادرها وأنواعها من نصوص ومعلومات وآراء ومواقف. فإن هذه الوثائق تُعتبر مصدرًا حريًّا بالاهتمام وذلك لأنها تُورد أخبار الحوادث عند حدوثها مباشرة، فهي معاصرة لها وشاهدة معايشة للواقع.

إلاّ أنّ لهذه الوثائق قراءة ورواية متأثّرة بكل خصوصيات الكاتب، لذلك يجب أن تخضع للتمحيص وتُسلّط عليها أضواء النقد الواعي بما فيه من نقد النص ونقد المصدر، أي نقد الرواية ونقد الراوي، وذلك لا يتمّ إلاّ بعد التعرّف على المصدر معرفة تامة والتعرف على نوع العلاقة القائمة بين المصدر الأجنبي وبين البلد والمجتمع الذي يتحدث عنه. فلا بدّ من التعرّف على خصائص المصدر الذي ظهرت منه الوثيقة وعلى اتّجاهاته وآرائه ومواقفه السياسية والدينية والفكرية والحضارية. فإذا كان هذا المصدر يحمل آراء وغايات معادية أو موافقة، أو ينتمي إلى حزب مناهض أو مناصر لأوضاع المجتمع الذي كُتبت عنه الوثائق، كأن يكون يساريا مغاليا أو عنصريا أو صليبيا أو يمينيا متطرفا فعلى الدارس أن يأخذ حذره ويضع في الحساب كل هذه الانتماءات أو القناعات فلا يقبل من النصوص ما كان انتمائيًّا متعصبًا ولا يعتمد من الآراء على ما كان متأثرًا بعصبية الدين أو الحزب أو الانتماء الحضاري الضيّق.

وعندما نقرأ هذه الوثائق يجب أن نلاحظ ونتذكر ولا نُهمل النظر في عوامل كثيرة أهمّها:

– إن هذه الوثائق كُتبتْ خلال نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وهي مرحلة ضعف فادح أصاب المسلمين في حضارتهم وثقافتهم وكل مناحي حياتهم يقابلهم في البلاد الغربية ازدهار بارعٌ وقوة طاغية.

– إن هذه الوثائق كُتبت من طرف أوربيين اتجهت جهودهم – في تلك المرحلة – إلى استعمار الأمم واستغلال البلاد فاستعمرت غالب البلاد الإسلامية.

****

رسالة [1] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى سفير فرنسا في القسطنطينية مؤرخة بيوم 17 ماي 1880/ 7 جمادى الثانية 1297 هـ.

سيدي السفير.

يشرفني أن أعلمكم بأني اتصلتُ الآن بالرسالة البرقية التي وجهتموها إليّ عن طريق البرق والمؤرخة بيوم 10 من الجاري. لقد كنتُ أترقب وصول الشريف الجديد عبد المطلب لأعلمكم بالتغيّر الذي يحدث في هذه البلاد. مع كل ما كان قد حدث منذ دخولي في وظيفي هنا. واستجابة لأمر سعادتكم فإني أسرع حالاً لأكتب لكم مخبرًا بالتفاصيل عما حدث منذ وفاة الشريف حسين باشا. فقد علمنا أن قاتِله هو رجل أفغانيّ من الخوارج الذين يحملون كراهية كبرى للأشراف.

إن قنصليات القوى الأوروبية في هذه المدينة (جدة) اتفقت مع السلطة المركزية في البلاد على نشر خبر يفيد بأن القاتل هو رجل فارسي. ولكن الحقيقة هي غير هذا. وكان غرضهم من نشر هذا الخبر هو المسّ والإساءة للقنصل العام لبلاد فارس في هذه المدينة.

عند ما عُلمتْ تسمية الشريف عبد المطلب باشا غادر أبناء أخيه البلاد، ومن بينهم عبد الله باشا أخو الشريف المقتول، فسافروا ليسكنوا القسطنطينية تلافيا للخلافات حول السلطة.

أما الشريف عبد المطلب فإنه عوض أن يصل مباشرة إلى مكة ذهب إلى ينبع ليبدأ أعماله وتحركاته منها وليأخذ القرارات الأساسية لإقرار الأمن والاطمئنان في هذه المناطق البعيدة التي يتحرك فيها أهل البادية. ولهذا الغرض دعا رؤساء القبائل البدوية وخاصة حُديْجة Hodaija فلقيهم جميعا في مكان عيّنه لهم. وبعد أن أزاح كل العداوات التي كانت قائمة بينهم عيّن لكل قبيلة شيخا اتفقوا عليه، ووعدهم

---

[1] Nantes، الحزمة رقم 2، الملف رقم 8 ص 2 – 3.

بأنهم سيحصلون جميعا على أعطياتهم كاملة. وطلب منهم إقرار الأمن وحماية الحجيج في الطريق الواصل بين المدينة ومكة، وكذلك الحفاظ على الأمن ونشر الاطمئنان في كل هذه الجهات.

وبعد ذلك اتّجه الشريف إلى المدينة ومعه قواده العسكريين ليبسط نفوذه في البلاد ويطّلع على المواقع العسكرية. وإنّ آخر الأخبار تعلن أنه سيعود إلى ينبع يوم الأربعاء 19 من الشهر الجاري / 9 جمادى الثانية 1297 هـ. وسوف يكون وصوله إلى جدة يوم الجمعة 21 منه /1 جمادى الثانية 1297 هـ.

إن الوضع الحالي بمدينة جدة يشبه تقريبا ما كانت عليه حالتها قبل هذه المرحلة. وإن ما نشرته بعض الجرائد في الأيام الأخيرة بخصوص أوضاع النصارى في مدينة جدة هو أمر غير صحيح، والأمر في الحقيقة هو عكس ما يُشيعون. فإن النصارى في هذه المدينة يتمتعون بنفس الحقوق التي كانوا يتمتعون بها سابقا، مما يسمح لي بالأمل في أن الأمن العام في هذه المدينة سيستقر أكثر من الماضي. إذ يظهر لي أن هذه الشخصية (شريف مكة) ستفرض على العرب الأمن الذي لم يكن قد حصل قبل.

إن التغيّر الذي حدث اليوم في هذه المدينة هو إلى التحسّن، فإن حادثة قتل الشريف كانت سببًا في ذلك. فقد أصبح أصحاب السلطة الحجازية أكثر حفاظا على النظام وأكثر التزام بالقيام بواجباتهم في وظائفهم، وهو ما لم أكنْ ألاحظه في جدة منذ قدومي إليها قبل 25 سنة. فلم نكن في السابق نجد سعر الغنم يصل إلى ثلاثة قروش. وذلك يعود إلى أنّ الاحتكار أصبح ممنوعًا من طرف جابر باي ابن الشريف. وليس لي ما استثنيه من رخص البضائع إلا الماء الذي بقي غالي الثمن ورديئا. وإني آمل أن يصبح وضع وثمن الماء في المستقبل على غير ما هو عليه الآن. فقد قال لي السيد الحاكم العام للمدينة بعد تولي الشريف أنهما، أي هو والشريف، سيبذلان كلّ الوسائل اللازمة حتى يصل الماء إلى جدة.

ويجب أن ألاحظ أنّ السفن الحربية الإنجليزية تصل ميناء جدة من آونة إلى أخرى ليكون لهم تأثير على البلد.

****

رسالة [2] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى سفير فرنسا في القسطنطينية مؤرخة بيوم 26 ماي 1880/ 16 جمادى الثانية 1297 هـ.

سيدي السفير،

يشرفني أن أبلغ إلى سعادتكم في هذه الرسالة ما يلي:

في صباح يوم السبت الأخير وصلتْ إلى جدة السفينة " الطليعة " التي قدمت من القسطنطية وفيها الشريف، فوقع الاحتفال بقبوله وذلك بإنارة الأضواء وإقامة الأفراح والتّجمعات من المتساكنين المسلمين والنصارى طيلة ثلاثة أيام. وحالما وصل الشريف ذهبتُ للسلام عليه وخصتّني بقبولٍ حسن. وفي نفس اليوم بعث نيابة عنه يحيى باشا ليزور قنصلية فرنسا.

وفي هذا اليوم ذهب الشريف مع الحاكم العام إلى مكة ومعه حاشية كبيرة العدد.

وخلال الأيام الأربعة التي قضاها في تبند (جدة) قُدّمتْ بين يديه العديد من القضايا فوعد بأن العدالة ستأخذ مجراها فيها.

وقد أعلمني حاكم ينبع القديم – عند زيارته لي بالقنصلية – بأن الشريف عند وصوله إلى ينبع كان جماعة من الأعراب فرحين به وبعضهم الآخر على العكس من ذلك، فوقعت بينهم مُناوشات صغيرة قُتل فيها اثنان من شيوخهم. وأعلمني أيضا أن الأعراب سيحصلون على ألفيْ كيس من الرزّ وأنهم إلى الآن لم يحصلوا إلا على الوعود. ولكن السلطة أعادت أهل البادية إلى الهدوء والاطمئنان، فإن هذا الحاكم (

---

[2]) Nantes البكرة رقم 2 ، الملف رقم 8 ص 4 ـ 6.

حاكم مدينة جدة) الذي له معرفة جيدة بطبائع أهل البادية وتصرفاتهم سيقع تعويضه بحاكم آخر كان قدِمَ مع الشريف من القسطنطينية. إلاّ أنّ الشريف أراد أن يُقرّ الحاكم القديم في جدة ويرى إرجاع الجديد إلى القسطنطينية.

****

وفي [3] نفس تاريخ الرسالة السابقة (26 ماي 1880/ 16 جمادى الثانية 1297 هـ.) صدرت عن القنصل الفرنسي بجدة رسالة أخرى موجّهة إلى وزارة الخارجية الفرنسية (القسم السياسي) عليها عنوان جانبي نصه (للأعلام).

سيدي الوزير

يشرفني أن أخبر معاليكم بالحوادث التي حدثت في الظروف الأخيرة:

إنّ شريف مكة الجديد عبد المطلب عند خروجه من القسطنطينية قاصدًا مكة مرّ بمدينة ينبع ليمسك بزمام السلطة، فجمع رؤساءَ أهل البادية الذين كانوا يمنعون استتباب الأمن في ناحية المدينة ويهددون سلامة الحجيج في طريقهم بين مكة والمدينة. فقد أُعلمتُ بأن الشريف أعاد البدو إلى جادة الصواب وأكّد عليهم وجوب نشر الأمن والاطمئنان في طرقات المدينة. وهو أمر كنتُ أعلمتُ به سعادة السيد السفير سابقا (سفير فرنسا بالقسطنطينية). وقبل وصول الشريف إلى جدة كان أغلب أهل المدينة متيقنين من مستقبل أكثر سعادة وأكثر راحة. وحتى أنّ المتساكنين من النصارى كانوا يأملون ظروفا أطيب في علاقتهم مع المسلمين.

وفعلا فإنه بعد تولي الشريف عبد المطلب أصبحت البضائع الحيتية أرخص ثمنا وأصبح الاحتكار في التجارة ممنوعًا من طرف ابن الشريف جابر باي، وإن موظفي الدولة أصبحوا أكثر التزاما بواجباتهم.

---

[3] Nantes نشرة رقم 2 . ملف رقم 8 ص 4 ـ 6.

وصل السيد الشريف عبد المطلب يوم 19 من هذا الشهر [7 جمادى الثانية 1297 هـ] فاقتُبل بأفراح واحتفالات. وبعد أربعة أيام ذهب إلى مكة. ومع ذلك فإنّ عددا كبيرا من المظالم رُفعت له فوعد الناس بعدالة شريفة. واليوم أصبحتْ تصلني أخبار مغايرة لما كنا نسمعه عن حال طريق المدينة من الأمن والاطمئنان. وبإيجاز يمكن أن أقول أني ما رأيت تغيّرًا هامًا في مناسبة هذا الشهر الهجري فإن بعض الحجازيين أصبحوا يتاجرون في العبيد بصفة مكشوفة في حين أنهم في السابق كانوا يقومون بذلك خفية.

منذ أربعة أيام وقعت حادثة مؤسفة، فقد عُثِر على أرمنيّ نصراني مواطن عثماني وهو مقتول في بيته، قُتل عندما كان نائما وحده، ولم يكن له بالبيت خادم. عُرف هذا الرجل في المدينة بأنه كان يملك مقدارًا كبيرًا من المال ولعل هذا الذي سبَّبَ موته. وحالما علمتُ بالأمر اتفقتُ مع القائم بقنصلية هولندا ومع قنصل انجلترا وبعثنا رسالة إلى الحاكم العام في مكة لنلفِتَ انتباهه إلى هذه القضية. وسنوجّه لمعاليكم نسخة من هذه الرسالة. وإلى حد الآن لم يقع اكتشاف القاتل.

كل المواطنين هنا غير متيقنين مما ستكون عليه سياسة الدولة.

****

رسالة[4] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة (N. Mardrus) موجّهة إلى سفير فرنسا في القسطنطينية مؤرخة بيوم 3 جوان 1880/ 24 جمادى الثانية 1297هـ.

سيدي السفير

أعلم سعادتكم بالخبر المحزن وهو مقتل نصراني أرمني من رعايا العثمانيين.

---

[4] Nantes) البكرة رقم 2 ، الملف رقم 8 ص ٥.

وقد وُجد مقتولا في منزله. أقام هذا الرجل بالمدينة (جدة) منذ أكثر من 15 سنة ولم يؤذِ أحدًا، وكان يعيش بمفرده ولم يكن له خادم، واشتهر في المدينة بأنه يملك مقدارًا كبيرًا من المال. ولعله قُتل لأجل ماله.

بقية الرسالة مشابهة لما ورد في الرسالة السابقة....... [5]

****

رسالة[6] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى سفير فرنسا في القسطنطينية مؤرخة بيوم 4 جوان 1880/ 25 جمادى الثانية 1297 هـ.

سيدي السفير

كنت أعلمتكم في رسائلي سابقا بأن المتساكنين من مسلمين ونصارى أمّلوا في التغيير الذي يمكن أن يحدث بسبب تسمية الشريف الجديد في مكة وأملوا في التحسن السياسي وازدهار الأعمال (الاقتصادية)، ولكن حوادث وأخبارًا جديدة لا تسمح بمواصلة الأمل. فإن بعض المسافرين القادمين من المدينة أعلموني بأن البدو مازالوا ثائرين مما جعل طرق المدينة غير مأمونة.

كما ظهر هنا في جدة أشخاصٌ يتاجرون في العبيد بصفة مكشوفة في حين أنّ هذه التجارة سابقا كانت تقع خفية وفي سريّة.

وبإيجاز يمكن أن أقول لسعادتكم بأن الناس في الحجاز ليسوا متيقنين من مستقبل سياسي واضح في الحجاز.

****

---

[5]) وهي الرسالة الواردة أعلاه.

[6]) Nantes تكرة رقم 2 ، ملف رقم 8 ص 6.

رسالة[7] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى قنصل فرنسا في بيروت، مؤرخة بيوم 7 جوان 1880/ 28 جمادى الثانية 1297 هـ.

سيدي السفير

لي الشرف أن أعلم سعادتكم في هذه الرسالة بما وقع بعد وفاة شريف مكة حسين باشا وتعيين الشريف الجديد عبد المطلب. فإن الشريف الجديد لم يأت إلى مكة مباشرة وإنما مرّ إلى ينبع واستدعى شيوخ القبائل الذين قيل إنهم يخشَونه، وأكّد عليهم الحفاظ على أمن الحجيج في طريقهم بين مكة والمدينة. ثم ذهب إلى المدينة وعاد إلى ينبع وبعدها جاء إلى جدة. وفي يوم 22 ماي 1880/ 12 جمادى الثانية 1297 هـ بعد أن قضى أربعة أيام فيها سافر إلى مكة وفي صحبته الحاكم العام.

وقبل قدومه إلى الحجاز انخدع الناس وظنّوا أن البلد سيكون الحكم فيه ناشرا للاطمئنان في الحجاز. حتى أن النصارى كانوا يأملون في مستقبل أطيب وأكثر راحة. ولكن هذا الأمل بدأ يتبخّر، فقد جاء أناس من المدينة وأخبروا بأنها ما زالت مضطربة بسبب الأعراب رغم أنف الشريف.

.......[8] وإلى الآن فإننا لسنا على يقين في ما يتعلق بمصير هذا البلد تحت حكم هذا الشريف.....

****

رسالة [9] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى سفير فرنسا بالقسطنطينية برقم 27 ، مؤرخة بيوم 16 أوت 1880م / 10 رمضان 1297 هـ.

سيدي السفير

---

7) Nantes علبة رقم 2. الملف رقم 8 ص 9 – 10.

8) كلمات غير مقروءة في النص بسبب ضياع الحبر وسوء التصوير.

9) Nantes علبة رقم 2. الملف رقم 8 ص 10 – 13.

يشرفني أن أبلغ إلى سعادتكم الأنباء التي أمكنني الحصول عليها في ما يخص سلوك شريف مكة نحو بعض أبناء شيوخ القبائل الذين كانت لهم مواقف عدائية منه في ثورته التي قام ضد الإمارة بها سنة 1854م/ 1270 هـ .

تعرفون أنّ عائلة الأشراف تتكون من فرعين – ذوي عون وذوي زيد – وشريف مكة الحالي ينتسب إلى الفرع الثاني. وإن انحيازه في سياسته السابقة هو الذي سبب له منذ ثلاث سنوات العزل من مكة والنقل إلى القسطنطينية. واليوم رغم شيخوخته فإن طباعه لم تتغير مدة إقامته الطويلة بالقسطنطينية، وقد أثر ذلك على معاملته للحاكم العام الذي هو من صفّ ذوي عون، حسبما بلغنا.

إن حاكم الحجاز العام ومَن يحيطون به من أفراد الحكومة التركية يخشوْن منه ويخشوْن من دخوله إلى مكة فيحاول القضاء عليهم. ولكن على عكس ما كان منتظرا فإن الشريف أظهر منذ البداية الودّ والعطف على الحاكم العام وكأنه قد نسي كل مشاعر العداء نحو الأتراك.

وحالما وصل الشريف إلى جدة جاءه للسلام عليه من رؤساء القبائل الشريف علي بن حمزة الحارثي والشريف حسين الشنبري ومعهما كثير من كبار القبائل الأخرى. ولكن الشريف رفض أن يقابلهم، وهذا ما يدل على شعوره بالرغبة في الثأر، وذلك لأنهم أحفاد اثنين ممن وقفوا ضدّه مع الحاكم العام خلال ثورته على الأتراك. وفي يوم سفر الشريف إلى مكة مع الحاكم العام حاول الرجلان من جديد مقابلتَه بجدة فلم يقبلهما. ثم ظننا أنّ الأمر سيكون ممكنا في مكة ولكنهما وجدا نفس الصعوبات والرفض لمقابلتهما. وبعد أيام قليلة أُلقِيَ القبض عليهما وأُودِعا السجن بأمر من الشريف، ثم أطلق أحدهما وهو الشريف حسين الشنبري وترك الثاني مسجونا مدةً من الزمن. إلاّ أن أحد عبيد الشريف الحارثي – وقد كان ذكيا ماهرًا – لبس ثياب أحد عبيد شريف مكة في ليلة من الليالي وقدّم رسالة مزورة إلى رئيس شرطة مكة يطلب منه أن يسلم له الشريف الحارثي لمثوله أمام شريف مكة. وبكل سهولة أخرج السجين الذي هرب مع مملوكه.

وعندما علم الشريف بالأمر أصيبَ بخيبة أمل لأنه كان ينوي القضاءَ على هذا القائد البدوي. أما رئيس شرطة مكة فقد عُزل. وقد حدث كل هذا دون أن يتداخل الحاكم العام في الأمر.

وذات يوم وُجد ضابطٌ تركيٌّ مقتولا في أحد شوارع مكة، وبعد مدة وُجد ضابط آخر مقتولا دون أن يُعرَف القتلة. وقد حدثت اختلافات كثيرة بمكة وقامت فتنة وهياج شعبي اضطر الحاكم العام إلى نشر الجنود في كل حيٍّ من أحياء المدينة ، ثم مرّ الأمر دون إثارة هيجان شعبي. ولم يكن مثل هذا يحدث في زمن حكم الأشراف من ذوي عون.

وقد وقع أمر همَجيّ يدلّ على الطبع القاسي لهذا الشريف فإنه عندما علم بموت ابنه جابر بايْ الذي توفي في القسطنطينية، علم إن ثلاثة من العبيد يتحدثون عن الأمر يقولون: إنه لأمرٌ مؤسفٌ، لقد أصابت الشريف خسارة عظيمة لا تعوّض بموت ابنه، فإنه كان يحتاجه في مواصلة الحكم. ولما بلغه ذلك ناداهم وأمر بأن يُضربَوا إلى حدّ الموت، فمات اثنان وبقيَ آخرُ مشرفا على الموت.

لقد قلت سابقا بأن هذا الشريف لم يكن ممن يميل إليه الناس. أما المحيطون به فإنهم محبُون لسفك الدماء. لقد علمنا اليوم أنّ شيخيْ القبيلتين اللذين تحدثتُ عنهما سابقا ذهب أحدهما إلى قطع طريق السيّل والثاني في طريق الطائف. وكانا يقولان لضحاياهم في الطريق: اذهبوا إلى الشريف وقولوا له: نحن الذين سلبناكم، وإذا أراد أن ينظر فليأت بنفسه إلى هنا بكل الجيوش التي يستطيع جمعها.

قام الشريف بالاستعدادات لعقابهم والانتقام منهم ولكنه لم يكن قادرًا على جمع جيش وقوّة كافية فجنّد بصفة قسْرية عددا من العرب والأتراك. كل هذا يدلّ على العجز وعدم التنظيم اللذيْن يتّصف بهما هذا العجوز. وقد وقعت هزيمته من بعض القادة من البادية مع تحمّله الخسائر.

عند ما ننظر إلى هذه الأوضاع نخشى أن تقع قريبًا ثورة كبيرة بين العرب، لأن الناس عامة في الحجاز يكرهونه بسبب سوء سلوكه. فقد بلغ سوء طبعه إلى

درجة أنّ ابنه أحمد باي لم يستطع الحياة معه وغادره ليعيش لاجئا في بلاد شمّر قرب بغداد.

أقدم لكم مسحة أخرى لهذا العجوز توضّح طبعه. فإنه عندما وصل إلى جدة أودّع في السجن رجلا عمره 80 سنة مكبّلا بالحديد في رجليه ورقبته، وادّعى: إنه سبّه عند قيامه بثورته ضدّ السلطان، مضيقا أنه لا يخرج من السجن إلا بعد أن يموت أحدهما – المسجون أو الشريف –.

****

رسالة [10] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية. (القسم السياسي) مؤرخة بيوم26 سبتمبر 1880 م / 21 شوال 1297 هـ.

سيدي الوزير.

يشرّفني أن أعلم معاليكم بأني عندما رجعتُ إلى وظيفتي (بعد سفر) لاحظتُ القلق الشائع في بلاد العرب منذ توليّ الشريف عبد المطلب. هذا الرجل عمره 85 سنة عُزل مرتيْن وأعيد للحكم رغم ماضيه الثوري، ورغم جهود عامة السفراء بالقسطنطينية، واعتقادهم أنه لا يمكن أن تقع تسميته على الحجاز إلا لسبب. فإن السلطان (العثماني) الذي يرفض الجهاد ويرى عدم وجوب قيام عامة المسلمين ضد أوروبا قبلَ – حسبما يبدو – ما وعده به عبد المطلب. إلا أن ما يقوم به في مكة سيثير الكثير من الانزعاج لكل القوى العظمى التي لها مستعمرات في إفريقيا وفي آسيا.

وقد كنتُ أشرتُ إلى معاليكم بأنّ مكة هي موطن كل ثورة إسلامية.

---

[10] Nantes البكرة رقم 2 ، الملف رقم 13 ص 17 .

وأرى أنه يُوجد سبيلان لتوضيح هذه القضية المظلمة التي يمكن أن تكون نتائجها قاسية ونحن نظنّ أننا في أمن منها.

السبيل الأول: أن نشتري رجلا عربيًّا (ويكون تحت تأثيرنا) في حين أنّ الاختلاف الذي يقسم المتساكنين في هذا البلد منذ قدوم عبد المطلب والفساد والرشوة التي تأكل صميم هذا المجتمع (القذر) [11] ولا شيء أكثر سهولة من ذلك.

السبيل الثاني: أن نحصل من الباب العالي على رخصة لطبيب فرنسي من أصل جزائري مسلم يدخل إلى مكة فيقيم بها ويكلف فيها بمهمة رسمية ، فيكون طبيبًا في نطاق تتبُّع الصحّة العامة في جدة بحجة الاطلاع على كلّ ما يهمّ الصحة العامة. وقد بينتُ لسيدي وزير التجارة ضرورة أن يكون هذا الوظيف مفيدًا للصحة في أوروبا.

هذا ما أقترحُه على معاليكم وهكذا أكون قد قمتُ بما يُمْليه عليّ واجبي، وعبّرتُ اقتناعي. فإن الأموال التي توضع في السبيل الأول وفي السبيل الثاني ستمنعنا من الوقوع في مصاريف أخرى هي أكثر قيمة بكثير مع ما يصيبنا من الأسف والندم الكبيرين.

****

رسالة [12] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية. (الإدارة السياسية) مؤرخة بيوم 6 أكتوبر 1880م / 2 ذي القعدة 1297 هـ.

سيدي الوزير.

---

[11]) كذا في النص وهذا يدل موقف القنصل المتعصب والمعادي للمجتمع العربي الحجازي.

[12]) Nantes البكرة رقم 2 ، الملف رقم 13 ص 20 .

... [13] منذ أيام ثلاثة زارني رجل كلفه من الشريف ليعلمني بأنّ مقدارًا هاما من المال وصل نتيجة لمشاركات كبيرة من أوقاف بلاد الإسلام. وذلك لإصلاح مجرى ماء زبيدة الذي يزوّد مكة بالماء، وبما أنّ المقدار المالي كان أكثر مما يستلزمه العمل المذكور فإن الشريف عبّر على استعداده لصرف ما يبقى منه في إصلاح قناة مياه جدة (Aqueduc) وذلك بشرط أن يصله من قناصل الدول الأوروبية مطلب يذكر الوضع الصحي للمواطنين. في هذا الصباح أعلمت بذلك زملائي الانجليزي والهولندي واجتمعنا ..... [14]

****

رسالة [15] من قنصل فرنسا بجدة إلى وزارة الخارجية بفرنسا – الإدارة السياسية– بتاريخ 16 أوت 1880م / 21 رمضان 1298 هـ.

سيدي السفير:

لي الشرف بأن أضع بين أيديكم عريضة طلب واسترحام وُجّهت إليّ من رجل اسمه علي قاسم كان قد قدّم خدمات لنائب القنصل الفرنسي بسبب علاقاته الطيبة السابقة مع الشريف.

أرجو من معاليكم أن تعلموا بذلك وأعتقد أنه من الأصلح أن تدعموا طلبه عند وزارة العدل بالقسطنطينية. فإن هذا سيرفع درجة تأثير فرنسا في هذا البلد لأن الناس هنا يعتبرون فرنسا حامية للمضطهدين.

N. Madrus

****

---

[13]) الفقرة الأولى من النص غير واضحة الكتابة.

[14]) بقية الفقرة غير مقروءة، ويبدو من بعض كلماتها الواضحة منها أن الشريف طلب مليوني قرش منهم للمشاركة في المشروع.

[15]) Nantes البكرة رقم 2 ، الملف رقم 13 ص 16

رسالة [16] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلــى وزيــر الخارجيــة الفرنسية بتاريخ 10 سبتمبر 1888 / 4 محرم 1306 هـــ ، وهــي بــرقم 9. وعليها عنوان جانبي نصه: تقرير حول حج سنة 1888م / 1305 هـ .

سيدي الوزير،

انتهى موسم حج سنة 1888 يوم 18 أوت / 10 ذي الحجة 1305 هـــ في توافر عدد كبير من المسلمين، وكان عيد الأضحى يوم الجمعة 17 أوت 1888 / 9 ذي الحجة 1305 هـــ وهو يسمى بالحج الأكبر، فكان عدد الحجيج 300.000 مسلم قدموا من كل جهات العالم. من الجزر ومن الهند والصين ومن الأراضي السيبيرية وضفاف النيل من النيجر ومن شواطئ البحر الأبيض المتوسط وجهات البحر الأسود وبحر قزوين وجميعهم قام بحجه إلى مكة.

نزعوا ثيابهم العادية والتقوا في قطعتيْ قماش (الإحرام) أداروا إحداهما على الخصر لتصل إلى الركبتين ووضعوا الثانية على الكتف وحرروا اليد اليمنى. رؤوسهم عارية وأرجلهم لابسة بنعليْن خفيفيْن. زار الحجيج الكعبة وطافوا سبعًا بهذا المعبد المقدس وقبّلوا الحجر الأسود الملصق بالزاوية الواقعة في الشرق. ثم شربوا من البئر المسمى زمزم ، هذه العين المعجزة التي فجّر الله منها الماء تحت أرجل هاجر وابنها إسماعيل الذيْن أهملا في الصحراء.

وبعد صلوات الحجيج المتواصلة في مكان يسمى المقام – أي مقام إبراهيم– يتمّ السعي بين جبليْ مروة والصفا – الواقعان بنفس المدينة – وذلك لتذكر السعي الحزين الذي قامت به هاجر باحثة عن الماء لسقاية ابنها المشرف على الموت. وفي اليوم التاسع من شهر ذي الحجة (17 أوت) يذهب الحجيج إلى جبل عرفات – ويسمى جبل الرحمة – يبعد قرابة 30 كلم عن مكة[17] . وهناك بعد أن يستمعوا للخطيب يعظهم من فوق منبر آدم حيث تعلّم من جبريل أول الأدعية في حياته.

---

[16]) Nantes البكرة رقم 3 ، الملف رقم 1 الصفحة 29 – 35.

[17]) هنا خطأ واضح في تقدير المسافة الفاصلة بين الحرم المكي وجبل الرحمة.

ينزل الحجيج إلى وادي مِنى فتُذبح الأضاحي من جمال وبقر وخرفان ومعز وغيره. وهذه آخر احتفالات الحج إلى مكة.

ثم أن الحجيج الذين لم يكونوا قد زاروا المدينة المقدسة الثانية بالحجاز "المدينة" يذهبون إليها ليقوموا بأعمالهم الدينية التي تتمثل في الصلوات عند قبر الرسول والخلفاء. وأما الذين كانوا قد زاروا المدينة فإنهم ينزلون إلى جدة ليركبوا السفن التي تُرجعهم إلى بلدانهم.

الحج إلى مكة فرض إلهي أما " الحج " إلى المدينة فهو وضعي[18] Canonique. فالقرآن يفرض الحج إلى مكة بصفة قطعية على كل مسلم على الأقل مرة واحدة في العمر ولا يعفيه من ذلك إلى المرض أو الفقر. أما "الحج" الثاني[19] فإنه لم يفرض إلاّ عن طريق العادة المعمول بها. وإن أحاسيس ورع المؤمنين هي التي تدفعهم إلى زيارة المدينة. ومن حج إلى مكة ولم يقدر على الوقوف والدعاء عند قبر الرسول فإنه حجه تام ومقبول.

وكما أنه كان لي الشرف بأن أعلمتُ معاليكم في الرسالة التلغرافية المؤرخة بيوم 22 أوت / 15 ذي الحجة بأنّ الحالة الصحية لعامة الحجيج كانت ممتازة، وذلك – حسب تقرير رسمي – بسبب إجراءات التنظيم البوليسي والصحي التي اتخذتها السلطات المركزية في مكة، تحت رعاية وتفقد اللجنة الصحية العثمانية المرسلة لهذا الغرض من القاهرة.

ويُقال بأن الحُفر التي جُهّزت في وادي منى لردم بقايا الأضاحي – التي عددها أكثر من 200 ألف أضحية – كانت غير كافية وعملها لم يكن طبيّا مناسبا رغم أنها قد خُصّصوا لها 500 جنيها لإنجازها. لأن نصيب كبيرًا من هذا المبلغ قد ضاع بين يديْ رئيس بلدية مكة بموافقة الشريف ابن عون.

فبداية من يوم 18 أوت أرستْ بميناء جدة 23 باخرة تحمل أعلاما إنجليزية ونمساوية وفرنسية وايطالية وعثمانية وزنجبارية وجميعها تترقب عودة الحجيج،

---

[18]) اصطلاح يستعمله أهل الديانة النصرانية.

[19]) وهو زيارة المدينة.

ففي سنتي 1882 و 1883 لم تبعث مصر في عهد الثورة العرابية غير 596 حاجا في سنة 1882 م / 1299 هـ و 298 حاجا في سنة 1883م / 1300هـ رغم قربها من أرض الإسلام المقدسة.

وبالمقارنة مع السنوات الماضية فإن أعداد مواطنينا بالشمال الإفريقي كانت أقلّ رغم أن حج هذه السنة كان حجّا أكبر (عرفات يوم الجمعة) فلم يأت أكثر من ثلاثة آلاف حاج من الجزائريين والتونسيين، ويفسر هذا ما وقع في تونس من الجفاف وما أصاب الجزائر من الجراد المُتلِف.

وإنّ من بين وجهاء الجزائر الواردين إلى جدة وقد قدموا عبارات تقديرهم إلى ممثل فرنسا يمكن أن أذكر:

– قبطان الصبايحية[20] عبد القادر بن عمار آغا ورقلة[21] سابقا.

– القائد السابق علي بن العربي، يحمل وسام ضابط بجوقة الشرف (وسام فرنسي اسمه Légion d'honneur).

– ابنه الشريف بن علي، يحمل وسام فارس بجوقة الشرف وقائد الحركات.

– أحمد ولد زدو قائد أولاد علي، يحمل وسام فارس بجوقة الشرف.

– ألملياني ابن الحاج الساحلي، قائد الصفراء.

– سي [22] أحمد بن أحمد كان آغا منطقة تلا مغرينا، ضابط بحوقة الشرف. توفي بمكة.

– صديق بن عبد الله، قائد بعين الصفراء.

–الحاج أحمد التلمساني قائد تلمسان سابقا. وتوفي بمكة.

ويتأكد عليّ أن ألاحظ تسيير تحكم النعم بتجزئر أن أحد الحجيج واسمه الحاج أحمد بن نصر الذي كان قائدًا بالأغواط[23] قد كان حجّ سابقا. وبلغني بصفة مؤكدة أن هذا الشاب الجزائري كان خلال إقامته بمكة على علاقة مباشرة

---

[20]) مجموعة من الجيش الفرنسي في مستعمرته بشمال إفريقيا.
[21]) منطقة في جنوب البلاد الجزائرية.
[22]) استعمال عامي يطلق في بلاد المغرب العربي عوض كلمة سيد.
[23]) منطقة في جنوب البلاد الجزائرية.

ومتواصلة بشريف مكة. وقد أسس جمعيته الخاصة التي تجمع شيوخ الزوايا الدينية. ولعله يكون من المناسب تتبعه ومراقبته بعناية خاصة وذلك عند إقامته بالجزائر. فعند وصوله إلى جدة قدم إلى القنصلية صحبة القائد الشريف بالعربي وقد لاحظت بوضوح السلوك المنزوي المنزعج للحاج أحمد بن نصر وهو ما يخالف ما كان عليه الحاج العربي من طبيعة صريحة وواضحة.

ولقد اقتبلت القنصلية الفرنسية زيارة الأميرة بنت محمد بن أحمد أخي سلطان زنجبار وزيارة سعيد علي أخي سلطان أنجوان (Anjouan) من جزر القمور ومعه ابنيْه، وزياة باوما فومو (Baouma Foumo) أمير أكبر جزر القمور، وزيارة عبد الله بن سعيد حسن قاضي أنجوان. كل هؤلاء الأشخاص كانوا مُرَافقِين كل بحاشيته العديدة ، وكانوا قد وصلوا جدة بواسطة باخرتين من أسطول بحرية سلطان زنجبار.

وأعلم معاليكم أيضا بوجود شخصين من المقربين لدى الأمير ابن الرشيد – أمير نجد – الذي ربما يكون سلطان الجزيرة العربية في المستقبل عند سقوط الإمبراطورية العثمانية، وتصحبهما حاشية كبيرة جيّدة التسليح، وهي تمثل قوة وحماية حقيقية.

لقد حرصتُ على ربط علاقات مباشرة مع رعايانا من إفريقيا الشمالية وقدمت لهم الإعانة والحماية بعزيمةٍ ضدّ كل تعسُّفٍ وسوء معاملة كانوا يقعون ضحيتها. وبذلتُ الجهد لأقدم لهم تدليل على أن فرنسا هي دائما عظيمة وقوية ومحترمة في الخارج وأن حمايتها لهم هي حماية حقيقية وناجعة. لقد توصلت إلى إصدار حكم بالسجن ثمانية أيام على قبطان باخرة عثمانية اسمها "يلدز" لأنه أساء لرجل جزائري كان راكبًا في سفينته عند رحلتها من السويس إلى جدة. كما أني حميت حجيجنا من اعتداءات ربابنة السفن رغم أنهم دفعوا المبلغ الحقيقي القانوني، ومع ذلك تُركوا واقفين تحت الشمس مع أولئك الذين لم يدفعوا. وقد وقع لهم هذا تحت نظر الشرطة الذين قبضوا ثمن سكوتهم، مما جعل المواطنين يدفعون الثمن مرتيْن. وقد توصّلت إلى إيقاف حاجّيْن سمحا لنفسهما بأن ينعتا الجزائريين بالكلاب

وبعبيد الفرنسيين. وقد رتبّت اتفاقات بين الجزائريين والجمّالين لكراء الجمال من جدة إلى مكة.

وأخيرًا عندما علمتُ يوم 18 أوت بأن الشريف والوالي يمنعان قُرابة ألف رجل جزائري أن يعودوا إلى جدة ويسافروا إلى المدينة عن طريق البحر، وطريق البحر هو أسهل وأرْخص ثمنا في حين أن طريق البر طويل وخطير وغال. وكان رجلان من الموظفين يقتسمون مع الجمّالين أثمان كراء الجمال – كما سأبَيِّنه لكم في ما بعد – فتداخلتُ بعزم عند شريف مكة والوالي، مما جعلهما ينتهيان عن هذه الأعمال المخجلة، وسمحا للحجيج الجزائريين أن ينتقلوا إلى جدة ليسافروا عن طريق البحر.

هذه الحماية الدائمة واليقظة التي نجحتْ القنصلية الفرنسية في إحاطة الجزائريين والتونسيين بها جعلتهم يذْهلون أمام نتائجها. وحسب رأيي فإنها أحسن طريق لضمان ارتباطهم بنا. فالقرآن يقول " كونوا أقوياء على الأرض لأن القوة في إظهار الكرامة" [24] وإن المواطنين الفرنسيين الذين مرّوا خلال هذه السنة بالحجاز سوف يحملون فكرةَ واضحة عن نجاعة تأثير فرنسا في بلاد الإسلام وذلك نتيجة لجهودي التي بذلتُها. فقد انتهى وانقضى العهد الذي كان فيه العالم الإسلامي يحمل رأيا خاطئا عن بسبب مشاركتها بجيشها في حرب القرم وفي الحرب ضد روسيا والمقارنة بينها وبين دولة بصطنبول القوية.

فإن حرب سنة 1877م / 1294 هـ ووصول الجيش الروسي إلى سياج القسطنطينية، ونتائج مؤتمر برلين، وفرض الحماية الفرنسية على تونس، واستيلاء الإنجليز على مصر وسواكن، واستقرار الإيطاليين بمصوع. كل هذه العوامل أصابت بضربة قاضية الأوهام التي لا تصدق وأصبح المسلمون لا يستطيعون تغطية ضعف وعجز حاكم القسطنطينية.

---

[24]) لا نعرف آية في القرآن الكريم فيها هذا المعنى، وهو ما يدل على جهله .

كنتُ كتبتُ مشيرًا إلى أنّ هؤلاء الحجيج الزائرين سنويا قبر الرسول يؤثرون على أقوام مستعمراتنا (Nos indigènes) (يعني الجزائريين والتونسيين والمغاربة) فيعودون إلى أوطانهم أكثر تحجُرًا وتعصّبا، وكثيرًا ما يعودون ومعهم مشاريع ثورةٍ تنضج وتتهيأ تحت شمس مكة. أما الآن فإن اقتناعي قد تغيّر نتيجة لدراسةٍ قمتُ بها في هذا الموسم من حج المسلمين الذين ولم تظهر لهم حقائقه من استغلال الحجيج واستعمالهم كمادة تجارية مع ضعف حالهم. مما أنتج شعورًا بالغضب والتقزّز الذي يعود به (أهل المغرب العربي) إلى بلدانهم وتحت خيامهم وداخل مساكنهم البسيطة بعد التجربة التي واجهتْهم في هذا البلد المتوحّش (كذا) الذي هُدّدت فيه حياتهم وأموالهم تارة من طرف البدو، وأخرى من طرف الموظفين الأتراك على اختلاف درجاتهم من أبسط موظفي الجمارك إلى الوالي حاكم الولاية وجميعهم محتاجون سلابون وغير نزهاء.

أن الأمر الصالح والمثمر للسياسة الفرنسية في تأثيرها على نفوس الحجيج الجزائريين عندما هو ما يشعرون به عندما يقارنون فيجدون أن في بلادهم النظام والأمن، وأنّ إدارتنا صالحة وأنّ عدالتنا عادلة للناس جميعا مقارنة بعدم الأمن في الأرض الإسلامية المقدسة ولصوصية الموظفين الأتراك. فحالما يصل الحجيج لأداء فروضهم يُسلبون بصفة منظّمة من كل الجهات: بعد أن يخرجوا من أيدي البحارة وأصحاب السفن يقعون في ما هو قسى وهي أيدي موظفي الجمارك الذين يشتركون مع الشريف والوالي. فكل الناس في الحجاز يعرفون حقائق الأشياء. فقوّاد القوافل يذكرون بأن كراء الجمل في رحلة بين مكة والمدينة يكون بثمن 35 (ريال) = Thalassos وصرف ريال الواحد هو 3.75 فرنك. ولكن الجمالين لا يصلهم من ذلك إلا 16 ريال وأن 19 الباقية يقسمها الموظفان الكبيران اللذان يحكمان الحجاز وهما الشريف والوالي. فيكون ذلك سبيلا للضغط الذي يفرضونه على الحجيج حتى يسافروا ما بين مكة والمدينة عن طريق البر دون طريق البحر، رغم أنه من المصلحة الكبرى للحجيج السفر عن طريق البحر. فقد سافر 150.000 حاج بين

مكة والمدينة عن طريق البحر في حج 1888م / 1305 هـ فيمكن لمعاليكم أن تحسبوا الأموال الكثيرة التي قُبِضَتْ ظلما وعدوانا من طرف الشريف والوالي. وفي سبيل ذلك فإنهما يبذلان الجهد للحصول على حماية وزراء السلطان أو رضى حريم البسفور (أي نساء القصر) ويُصرف نصيب من هذه الأموال يخصصه الشريف لإرضاء شغفه بزراعة الزهور في حدائقه بمكة وبالطائف. أما الوالي الذي يبلغ من العمر بين 75 و 80 سنة فإنه يجمع هذه الأموال الذهبية لتكون له مرفقا في تقاعده الذي سيدعوه إليه حاكم إسطنبول.

في هذه السنة وقع ما وقع في السنة السابقة حيث هُوجمت العديد من القوافل ونُهبتْ من طرف القبائل البدوية وقُتِل عدد هام من الحجيج في الطريق.

فحالما يبتعد أحد التعساء المسافرين عن أصحابه أو يتأخر عن القافلة يسقط بسرعة بين أيدي قُطّاع الطرق الذين يتابعونها كما تتابع الضباع القطيع وهي تترقب الوقت المناسب للانقضاض على الفريسة.

أما الاعتداءات التي تقع على الحجيج من طرف قبيلة متجمّعة فهي عموما تحدث نتيجة للتجاوزات المخجلة التي يقوم بها الشريف والوالي. وأوضح لكم ذلك بالمثال.

فعندما طرد نهائيا إبراهيم باشا الوهابيين من الحجاز في سنة 1817 م / 1232هـ وأعاد سلطة السلطان على مكة والمدينة فهم أن أحسن طريقة لتهدئة البلاد هو تحرير الاتصالات بين الشواطئ والمدينة المقدسة وبضمان مصالح أهل البادية . فإنهم مشاغبون لا يخضعون لنظام. وهم قبائل بدوية لا صناعة لها ولا تجارة، متوزعة في أرض صحراوية قاحلة لا تُزرع، مما لا يعطي لسكانها أي مصدر رزق، وليس لهم إلا قطع الطريق. فإن باشا مصر المشهور محمد علي الذي كان له النظر على حاكم الحجاز التزم بأن يوزّع كل سنة على البدو كمية هامة من الحبوب لضمان قُوتِهم. وبواسطة سياسة ذكية تجاه قطاع الطرق إلى توفير شرطة حامية ضمن للقبائل المحيطة بمكة والمدينة رزقا من حراسة القوافل وكراء الجمال

التي يحتاجها الحجيج. وهكذا أصبح البدو " كلاب بيت الله" وهو اسم يطلقونه هم على أنفسهم.[25]

لقد طُبقتْ بنود الاتفاق بدقة بين الطرفين إلى عهد سنة 1842م / 1258 هـ حيث تخلّى حاكم مصر على النظر في ولاية الحجاز وتركه للإدارة العثمانية. ومنذ ذلك اليوم ظهرت المشاكل بين البدو والسلطات التركية التي عوض أن تقدّم الحبوب إلى أهل البادية فإن الموظفين يستولون على الأموال التي أرْسِلتْ من القسطنطينية لشراء تلك الحبوب. ومن هنا ظهرت شكاوى أهل البادية وعدم رضاهم فاستولوا على الأسلحة واعتدوا على القوافل.

كما أنه نتيجة للعداء الطبيعي بين العرب والأتراك ظهرت خلافات بين الشريف والوالي فالعلاقات بين هذيْن الموظفيْن يغلب عليها حذرُ كل واحد منهما من الآخر. وسلك كل واحد منهما نحو الآخر سلوك الدفاع والمراقبة المتبادلة مما جعل التزام الباب العالي لأهل البادية لا يطبّق بتمامه. ولكن إذا وقع الاتفاق بين الطرفين كما هو حادث اليوم – بين الموظفيْن الشريف والوالي الحاكميْن بالحجاز– فإنه يتمّ لغرض ابتزاز الرعية ولا توجد مراقبة فتضرّر أهل البادية ويُحرمون من حقوقهم فيحتجّون على ذلك ويردُّون بقطع طرقَ القوافل. هذا هو الوضع منذ أن عُزل الوالي صفوت وعُوّض بعثمان باشا في ولاية الحجاز.

وفي هذه السنة لم يكتف الوالي والشريف بخزن كمية كبيرة من الحبوب المهيأة أساسًا لأهل البادية بل باعوها لمصالحهم الخاصة بواسطة عمر ناصيف لتستغلّها نفوسهم اللعينة. كما أنهما استغلاّ الحج، فقد باعا حق مصاحبة القوافل إلى بعض القبائل وخصّوها بكراء الجمال للحجيج بمقابل لهما. ومن هنا بدأ ظهور الاعتداءات التي حدثت في هذه السنة. فقد هُوجمت قافلة على بعد مسيرة ستة ساعات من جدة فقُتل ثلاثة رجال وجُرح عشرة ووقع الاستيلاء على 30 جملا. وهُوجمت قافلة أخرى كانت واردة من المدينة إلى مكة، أوقفها البدو في وسط

[25]) نعت هذا القنصل ترجم لفظ خدمة بيت الله بلفظ الجشع الذي اختاره بسبب حقده. وهذا يكشف حقيقته وبعده عن المواقف الشريفة والروايات النزيهة.

الصحراء طوال يومين تحت الشمس الحارقة وبدون ماء إلى أن وافق الحجيج على دفع فدية لهم. وخلال هذين اليومين مات من القافلة 150 شخصًا تقريبا وهلك عدد من الحيوانات وذلك بشدة الحرارة والعطش.

وفي كل سنة يصل من الحجيج عن طريق البحر فينزلون في ينبع أو جدة وعند عودتهم ينقص منهم خمسة في المائة. 1% بسبب الموت و4% بسبب الفقر والمرض والإعياء من السفر بالإضافة إلى بعض المتشردين المتخلفين في الحج وهم ينتسبون إلى مختلف الأجناس.

فيبقى بمكة وبجدة من حجيج الجاوة 5% ويسكنون في زاوية مكة فيدرسون العلوم الدينية طيلة سنتين أو ثلاثة. وهذا أمر يسبب انزعاجًا للحكومة الهولندية التي لا يخفى عنها أنّ هؤلاء الطلبة تلاميذ هذه المدارس المتزمّتة يعودون إلى بلادهم حاملين بذور ثورة وعدم نظام ومشاعر حقد ضد المعتدي النصراني متأثرين بقول الرسول (اخفض رأسك أمام قوة أعدائك القاهرة، ولكن ارفع رأسك عندما يكون النصر للإسلام محققا) [26] وهو ما يمكن أن يقع في بلاد الهند. أما الجزائريون فإنهم عامة يأتون إلى الحجاز للحج فلا يبقى منهم أحد في زوايا مكة.

لا تقف أهمية الحج إلى مكة عند الجانب الديني فقط، فإن هذا السفر الطويل المضني إلى أرض الإسلام المقدسة لا يخصّص لأداء الفرض الديني فقط فإنه يمكن أن يقوم فيه الحج ببعض المبادلات التجارية عندما يشارك في هذه السوق السنوية العظيمة، حيث تختلط فيها منتجات المشرق والمنتجات الغرب. وهو مناسبة أيضا لشراء العبيد، وهو أمر لا يخفى عنّا، فالاستعباد موجود في بلاد الحجاز وما زالت البواخر والتجار ينشطون في هذه التجارة بالأجسام البشرية التي لها سماسرتها ومخازنها والمراكب العربية الصغيرة (les boutres) التي لا زالت أيضا تحمل إلى جدة عبيدًا من شواطئ أحبشة ومن بلاد النوبة.

---

[26]) يظهر أن هذا القنصل تعوّد أن يكذب على القرآن وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخترع آيات ينسبها للقرآن وأحاديث ينسبها للرسول. وهي طريقة كثيرة التداول في ما يكتب عن الإسلام والمسلمين من طرف العديد من الغربيين في تلك المرحلة وفي غيرها من المراحل التاريخية.

وبصفة رسمية وقانونية فإن الموانئ والجمارك لا تقبل العبيد، ولكننا نعرف مصادر ورود العبيد ومواطن وصولهم السرّي والمخازن الموجودة بجدة والتي يكدّسون فيها تجارتهم في البشر. والسلطات التركية تغضّ النظر عن ذلك وتبقى غير مهتمّة بالأمر لأنها قبضت ثمن ذلك [27].

اعتقد أنّ المصلحة التجارية تغلب المصلحة الدينية في بلاد الحجاز، وإن التعصب الديني في جدة ليس إلا شكلا ظاهريًا. فأغلب سكان جدة من الفرس والهنود والمصريين والسوريين والمغاربة والسود من الحبشة والنوبة والسودان، وهم يهتمون بمصالحهم المادية أكثر من الجوانب الدينية. وإن سكان جدة ومكة والموظفين الأتراك لا يحملون حقدًا على الأجانب، ولا يصمدون أمام التطور الأوروبي إلاّ بسبب خوفهم من أن يتقاسموا تجارتهم مع الأوروبيين الذين يخشونهم دائما. فإن استغلال مائتي ألف حاج يأتونهم في كل سنة من الجهات الأربعة من العالم يزوّدون اقتصاد البلاد المقدسة تلك البلاد التي يخضع سكانها لنهْب وسرقات الموظفين الأتراك.

إنّ المذبحة التي حدثت بجدة سنة 1858 وقتل فيها قنصلا فرنسا وإنجلترا وبعض مواطنيهم بتواطئي مع الحكومة التركية، لم تكن انفجارًا لتعصب ديني وحقد ضد النصارى وإنما كان ثورة لأجل مصالح تجارية مهددة ومصالح متساكنين أصبحوا يخشون من ازدهار الشركات الأوروبية التي بدأت تنافس منافسة شديدة تجّار البلد. فوقعت محذونة طردهم بأحداث ذلك اليوم الدامي يوم 18 جوان 1858م/ 6 ذي القعدة 1274 هـ. وأمام رد الفعل العنيف من فرنسا وإنجلترا كان عليهم أن يحنُوا رؤوسهم وأن يتحمّلوا التجارة الأوروبية. وأصبحت جدة في الحجاز بمثابة طنْجَة في المغرب، مدينة تنازل عنها الإسلام إلى أوروبا المنتصرة الفاتحة،

---

[27]) غريب أن يصدر هذا النقد اللاذع لتجارة العبيد في الحجاز عن قنصل فرنسي كانت بلاده منذ سنوات معدودة من أكبر مراكز تجارة العبيد في العالم. فإن تجارة العبيد لم تنته في فرنسا إلا سنة 1848 على يد Schoelcher أي قبل تاريخ هذه الرسالة بأربعين سنة فقط.

وأصبحت شبه مقطوعة عن الأرض المقدسة. وفي المقابل فإن الفكر التركي القديم المعروف بالتعصب والميل إلى التخلف سيتحصنُ بقوة داخل بلاد الحجاز.

إنّ القانون المتفق عليه المتعلق بالقنصلية لم يُقبل إلاّ في خصوص مدينة جدة ومدينتا مكة والمدينة وُضِعتا خارج الحق العام والاتفاق الدولي وبقيت المدينتان ممنوع دخلوهما على النصارى والأجانب، وإن الأجانب وإن كانوا مسلمين لا حق لهم في الامتلاك، وهم يرفضون أن يكون للقنصل فيهما موظف ولو كان مسلمّا. وهكذا ففي كل سنة يأتي المواطنون المسلمون من البلاد الأوروبية للحج فيُسْرَقون ويُنْهَبون ويُضربون في تنقلهم ما بين جدة ومكة ثم من مكة إلى المدينة وينبع فيُسلّط عليهم كل ضرر دون أن يجدوا حاميا، بحجة أنهم في أرض الإسلام المقدسة. والسبب الحقيقي هو أن ساكني الحجاز يريدون الاحتفاظ باحتكارهم للتجارة بين الشواطئ وداخل البلاد واستغلال الحجيج. ومصالحهم هذه تتكامل مع مصالح الموظفين الأتراك الذين يريدون أيضا الحفاظ على صيدهم الثمين.

لن أطلب أن يكون لقنصلية فرنسا في جدة قانونًا خاصًا يتعلق بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولكن بما أنهما خارجتان عن القانون العام فإنه يكون من المناسب أن يوضع لهما قانون قنصلي خاص يقع الاتفاق عليه يسمح لنا على الأقل بحماية مواطنينا الذين يأتون للحج (يقصد الواردين من المستعمرات الفرنسية من شمال إفريقيا وغيرها).

ثم إنني أريد أن أتطرق لموضوع هام يخص الاقتصاد الوطنية، وأعني بذلك أمر التنافس القائم بين البحرية الفرنسية والبواخر الأجنبية حول نقل الحجيج ذهابًا وإيابًا.

كنتُ قرأتُ في وثائق قنصليتنا هذه نسخة رسالة من الغرفة التجارية بمرسيليا بتاريخ يوم 14 أفريل 1877 م / 30 ربيع الأول 1294 هـ موجهة إلى حاكم ولاية Les Bouches du Rhône استنتج فيها كاتبها بأنه لا أهمية لوجود البحرية الفرنسية في البحر الأحمر، وأنه من المستحسن الانصراف عن نقل الحجيج.

هذه مسألة كبيرة هامة وقع تناولها بشيء من الإسفاف – حسب رأيي– ولذلك رأيتُ أن أناقشها هنا.

يقول هذا التقرير: إن نقل الحجاج من الجزائر إلى مكة يقع غالبا على البواخر الإنجليزية التي في عودتها من الصين ومن الهند تأخذ على ظهرها – وهي مارّة بجدة – بعض مئات من المسافرين الذين ينزلون في موانى الجزائر. تقوم بذلك دون أن تغيّر طريق وجْهتها فتستفيد ماديًّا دون مصاريف إضافية. وبهذا يمكنهم عرض أثمان لا يمكن أن تنافسهم فيها البواخر التي تسافر إلى البحر الأحمر لغاية تحميل الركاب الحجيج. فإن شحن الباخرة وما يُدفع من رسوم لمرورها مرتين من قنال السويس يمثل 26 فرنكا للبرميل (Tonnau) حتى تناسب صاحب الباخرة رحلتها.

وإننا لا نعرف شيئا عن سوء المعاملة التي ربما قام بها قادة السفن الإنجليز مع الحجيج الجزائريين خلال رحلة عودتهم إلى بلادهم. وإننا نعتقد أن ما كان قد حدث لم يكن إلا أعمالا فردية قد وقعت في سفن تحمل عددًا كبيرًا من المسافرين الذين هم نصف متوحشين[28] ومن المتأكد أن يقع إلزامهم بالطاعة وفرض النظام عليهم.

ويمكننا أن نؤكد بأن ما يبذله أصحاب السفن الفرنسية للحجيج من عناية راحة في سفر فإن هؤلاء الحجيج يفضلون دائما الباخرة السيئة المنافسة إذا ما وجدوا أنهم سيوفرون بعض الفرنكات من ثمن الركوب. هذه الظاهرة حقيقة وثابتة ويمكن أن نلاحظها في كل سنة. فعند سفر الحجيج من موانى المغرب والجزائر إلى الإسكندرية تقع المنافسة بين البواخر الفرنسية الممتازة والبواخر الإنجليزية السيئة جدًا. فيكون ثمن الركوب وحده هو الذي يجعل الحاج يقرر اختياره للباخرة التي يركبها [الإمضاء A. Granval].

---

[28]) كذا يصف المتخصص الفرنسي الحجيج الجزائريين، وكان قبل قليل يصفهم بأنهم مواطنون فرنسيون.

إني أجهل درجة صدق هذه الرواية ودقتها في سنة 1877م / 1294 هـ. ولكن ليس هو ما يحدث اليوم وأنا أكتب لكم هذا التقرير.

ففي ميناء جدة يَرْسُو 23 سفينة من إنجليزية ونمساوية وفرنسية وإيطالية وزنجبارية وعثمانية وذلك منذ شهر. ومن بين السفن توجد 18 سفينة مستأجَرة لإركاب الحجيج، قدم بعضها من المستعمرات الهولندية ومن بمباي ومن سنغافورة ومن البصرة ومن زنجبار ومن موانئ أخرى من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب والقسطنطينية. وجميعها تترقب ساعة رجوع الحجيج سواء من جدة أو من ينبع لتحمل الحجيج وتُبلغهم إلى أوطانهم. بعض البواخر الإنجليزية العائدة من بحر الصين ومن الهند جاءت لتُرْسى بجدة أو بينبع فإنها إذا كانت لها إمكانية إركاب تحمل بضع مئات من الركاب تبلغهم إلى بلدانهم. ولكن السفن التي تقوم بهذا قليلة وعدد الحجيج الذين يركبون فيها قليل يكاد لا يُذكر بالنسبة لإحصائيات الحركة البحرية الخاصة بالحج. وهو ما سنوضّحه.

لا يوجد إلاّ شركتان تُرسيان في مواني الحجاز في هذه الأحوال.

شركة Holt وشركة Persian Golff .

الأولى تقوم برحلة منتظمة بين الصين وإنجلترا عن طريق الجزائر تمرّ كل ثمانية أيام بالبحر الأحمر. ولكنها لا تدخل جدة إلا حسبما تتطلبه الظروف.

والثانية: لا تملك إلاّ أربع بواخر بين Cardiff والبصرة عن طريق مرسيليا والجزائر وهي لا ترسي بجدة إلاّ مرّة كل شهرين.

ومن شهر فيفري إلى شهر جوان تمرّ باخرة هولندية مرّة كل شهر تقوم برحلة منتظمة بين أوربا والهند وترسي أيضا بجدة ....[29]

فلنعد إلى الموضوع الحقيقي الذي يهمنا، أعني نقل أهل المغرب العربي من جزائريين ومغاربة وتونسيين وطرابلسيين.

---

[29]) فقرة غير واضحة بالأصل.

للسفر من موانى البحر الأبيض المتوسط إلى موانى البحر الأحمر كان نقل بعض الحجيج بواسطة بواخر إنجليزية وكانت حاملة للبضائع أو الفحم وهي متجهة إلى الهند أو إلى عدن. وكما ذكر تقرير الغرفة التجارية بمرسيليا فإن هذه البواخر تستطيع أن تخفض ثمن الركوب دون أن يكلفها ذلك مصاريف فتكون لها فائدة خالصة. ولكن يبدو أن الغرفة التجارية تجاهلتْ الظروف غير القانونية والقذرة التي تُبحر بها هذه البواخر. وعلينا أن نلاحظ أن هذه البواخر الإنجليزية تبحر في أغلب الأحيان دون أن تحترم بنودها الخاصة بها ولا القوانين الدولية. وهنا يستحسن أن يظهر موقف الحاكم العام للجزائر مفيدًا وخاصة في موانينا بشمال أفريقيا وهو موقع إنساني يحفظ المسافرين ويحمي تجارتنا الوطنية ....

جداول الحجيج الواصلين إلى جدة في ما بيْن سنة 1284 هـ/1868م وسنة 1293هـ/1876م

حج السنة الهجرية	السنة الميلادية	جملة الحجيج
1284	1868	23.538
1285	1869	27.133
1286	1870	24.910
1287	1871	29.760
1288	1872	56.173
1289	1873	30.000
1290	1874	35.867
1291	1875	40.091
1292	1876	35.279
1293	1876	38.759

جدول احصائي للحجيج الواصلين الى جدة بين سنة

1294 هـ / 1877 م وسنة 1305 هـ/1888م.

من الشمال					
السنة الهجرية	أتراك وسوريون	مصريون	الجملة	جزائريون تونسيون مغاربة	جملة الحجيج من الشمال
1294	3271	7599	10870	8951	19821
1295	3842	3163	7005	2290	9295
1296	7995	3495	11454	2288	13742
1297	7679	9541	17220	6805	24025
1298	5951	6656	12607	3509	16116
1299	1898	596	2494	500	2994
1300	3567	298	3865	448	4319
1301	6348	2387	8735	1329	10064
1302	10709	11013	21722	7358	29080
1303	5186	8985	14171	5743	19914
1304	6829	9337	16166	6738	22904
1305	7287	11736	19023	5763	24786

جدول احصائي للحجيج الواصلين الى جدة بين سنة

1294 هـ / 1877 م وسنة 1305 هـ/1888م.

من الجنوب					
هنود	جاوة	عرب ، يمنيون سودانيون	فرس	جملة الحجيج من الجنوب	الجملة العامة للحجيج الواردين الى جدة
7781	9243	3987	1886	22897	42718
8910	7288	1645	3349	21192	30487

42860	29118	3506	5931	8787	[illegible]
59659	35634	3390	5537	13594	13113
37785	21669	2428	4389	6256	8596
25580	22586	2480	4238	6238	9630
27263	22950	2151	2755	7898	10146
31157	21093	268	3997	7566	9262
53010	23930	1422	5813	8377	8318
42374	22460	2665	4904	5412	9479
44247	21343	1696	4355	4968	10324
54931	30145	3179	6344	8856	11766

وَقعَ الحج الأكبر الذي تمّ فيه الوقوف بعرفة يوم جمعة في السنوات التالية:

1297 هـ / 1880م.

1302 هـ / 1885م.

1305 هـ / 1888م.

****

رسالة [30] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (الإدارة السياسية) رقم الرسالة 4 . وهي مؤرخة بيوم 2 ماي **1866م** / **16** ذي الحجة **1281** هـ. وعليها عنوان جانبي نصه: نهاية مرحلة إقامة الشعائر الدينية في حج هذه السنة. الحالة مرضية للصحة العامة.

---

[30]) Nantes من تكرة رقم 3 . تصنف رقم 1 – من ص 106 إلى ص 126 .

سيدي الوزير.

يشرفني أن أعلم معاليكم بأن موسم الحج إلى مكة انطلق في يوم 25 أفريل 1866م / 9 ذي الحجة 1282 هـ ويشهد حشدًا كبيرا من الناس قُدّر بنحو 60 ألف شخص نصفهم فقط من الأجانب والباقي من العرب وأهل البادية. وقد وقع تمديد الاحتفالات إلى يوم 27 أفريل. ويبدو لي أن أسباب نقص العدد متعددة، منها أنّ حج السنة الماضية 1865م / 1281 هـ كان كثير العدد، وأنّ عدد الموتى فيه من الحجيج كان كثيرًا، وأنّ خسارات حصلت للمصريين الساكنين على ضفتي النيل كابَدُوا فيها خسارات كبيرة سواء في إنتاج القطن أو في الإنتاج الحيواني.

إنّ الأخبار التي حصلت عليها جاءتني مباشرة من موظف مسلم يعمل في هذه القنصلية كان قد حضر موسم الحج في المكان المقدس للإسلام، وهي أخبار سارة إلى حد اليوم. إذ تؤكدها الرسالة التي وصلتني من الباشا حاكم الحجاز ومن شريف مكة بعد تقديمهم التهاني الرسمية. من خلال هذه الأخبار الإيجابية التي حصلتُ عليها يبدو أن إجراءات صحية هامة تمّ اتخاذها من اللجنة الصحية العثمانية وتمّ تطبيقها بصفة دقيقة تحت مراقبة نشيطة من شريف مكة. فقد ذُبحت الذبائح - التي قدرت بنحو 30 ألف - خارج المدينة وفي أماكن ميزوها لذلك. أما فضلاتها المحفوظة بتحيير فقد حملت على ظهور الإبل أو في عربات ودُفنتْ على ثلاثة فراسخ في اتجاه الوسط. كما وضعت اللجنة الصحية 600 بيت خلاء وقام على مراقبتها مجموعة من الحراس لضمان حسن استعمالها. كما أن مياه الوضوء بيعت لهم بأثمان رخيصة (4 أو 5 قروش). كما مُنِع الحجاج من الوضوء من مناهل المياه العامة المخصّصة للشرب. وبفضل هذه الإجراءات والتنظيم مع محدودية عدد الحجيج لاحظنا أنه لم يمت في وادي منى إلا 36 شخصا خلال الأيام الثلاثة من موسم الحج رغم هذا التجمع المتهيّئ للأمراض. ولكن من المؤسف موت أن أحد

أعضاء اللجنة الصحية وهو الطبيب التركي الدكتور عاكف باي الذي توفي نتيجة للظروف الخطيرة.

كما وردت أخبار هيجان وقع بين الحجيج بسبب شجاعة شريف مكة وحسن تدبيره ووقوفه على تطبيق القيود الصحية الجديدة. ولحسن الحظ لم يحدث شيء خير بسبب شجاعة شريف مكة وحسن تدبيره ووقوفه بجانب اللجنة الصحية. ولكن هذه الأخبار لا تدلّ على أنّ أهل البلاد يقفون ضد هذه الإجراءات التي اتخذت ضد سلوك بعض الحجيج.

كثير من الحجيج يعودون إلى بلدانهم عن طريق المدينة، ولكن منهم الآلاف الذين يأتون إلى جدة فيملؤون المحلات التجارية والمكاتب والسفن التي يركبونها لعودتهم. هذه الكثرة من الواردين تسبّب ارتفاع أثمان المواد الغذائية في أسواقنا، وبذلك تضعف إمكانيات حصولنا على حاجاتنا الحياتية الأساسية.

[.... أما بخصوص الإجراءات للحماية من الأمراض فأرى ...] إذا كان لا بد من وضعهم في (كرنتينة) عزلة صحية بأربعين يوم فإني لا أدري كيف يمكن أن نضمن تغذية المدينة. وسوف أسعى إلى الإطلاع بنفسي على الحالة الصحية للحجيج الواصلين إلى مدينتنا (جدة). وسوف يكون لي الشرف بإعلام معاليكم بنتائج ملاحظاتي. وبناءً على آراء اللجنة الصحية وردتْ أوامر من القسطنطينية فقام حاكم الحجاز بدعوة قوّاد السفن الراسية والقائمين عليها ودعاهم إلى عدم شحن سفنهم بأكثر مما تتحمّل من الحجيج.

****

رسالة [31] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (إدارة القنصليات) وهي مؤرخة بيوم 6 ماي 1866م / 20 ذي الحجة

---

(31) Nantes البكرة رقم 1 – الملف رقم 1 ص 108 –109 .

1281 هـ. وعليها عنوان جانبي نصه: مواصلة استقرار الأوضاع الصحية الحسنة للجميع، مع الإعلام بوصول لجنة صحية جديدة.

سيدي الوزير:

يشرفني إعلام معاليكم بوصول رسالتكم رقم 54 التي تعلمني بأنه من الآن فصاعدًا ستكون إدارتنا ملحقة بالسفارة (الفرنسية) في القسطنطينية. مؤكدة على إبلاغ مراسلاتنا إلى السيد السفير وعليها ختم بواسطة القنصل العام بالإسكندرية.

إنه يسعدني يا سيدي الوزير أن أؤكد اليوم الأخبار السارة التي أبلغتُها إلى معاليكم في تاريخ 2 ماي [1866م / 16 ذي الحجة 1281 هـ] والمتعلقة بالوضع الصحي الحسن للحجيج، وهو ما لاحظته بنفسي في العائدين من مكة.

وصل إلى الميناء الحجيج الذين سيسافرون على بواخر الشركة المصرية "العزيزية". وعدد بواخرها 7 ، وهي راسية هنا منذ 15 يومًا، مع باخرتين لشركة إنجليزية من بمباي. وجميعها تتهيأ لإرجاع الحجيج، وكل باخرة منها يمكن أن تحمل من 500 إلى 700 راكب، تقوم برحلة أو رحلتيْن إلى السويس حسب توفر الحجيج القادرين على تحمل أثمان هذه البواخر.

وشحنت الأربعة الأولى المغادرة تحمل 2400 حاج. ولكن سفره بشيء من العجلة فوقع لذلك تزاحم حول باخرة إنجليزية ، حسب رواية الطبيب المكلف بالمراقبة من طرف اللجنة العثمانية. وقد ألزمَ القبطان الإنجليزي بإنزال الحجيج ووقع ذلك في ظروف وتنظيمات حسنة.

أما السفن الشراعية (وعددها 52 في هذا الميناء) والمراكب التي تحمل الحجيج سواء المسافرة نحو مصر أو نحو سواحل الخليج العربي أو نحو البلاد الجاوية تغادر بعد ذلك. ولا توجد أية باخرة حربية فرنسية هنا غير تلك التي ترسي في ينبع.

..........[32] ويبدو أن كل شيء على أحسن ما يُرام.

في هذا اليوم وصلت لجنة طبية عثمانية جديدة وهي مكونة من 4 أطباء من غير المسلمين مع وجود......[33] بصحة الحجيج. وتصبح هذه اللجنة لا تنظر في الحجر الصحي ولا يبقى لها إلا القيام بدراسة الأساليب التي تضمن الحفاظ من انتشار الكوليرا بين الحجيج في المستقبل. هذا إذا كانت حقيقة وضعتْ لهذه الغاية العلمية. وقد فوجئ الباشا حاكم الحجاز واللجنة الصحية بوصول هذه اللجنة الطبية العثمانية الجديدة التي اعتبرها غير لازمة ويرى أنها فُرضتْ على الباب العالي.

****

رسالة [34] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (إدارة القنصليات والإدارة السياسية والسفارة الفرنسية بالقسطنطينية) وهي مؤرخة بيوم 12 ماي 1866م / 25 ذي الحجة 1281 هـ. وعليها عنوان جانبي نصه: لجنة الأطباء من غير المسلمين في بلاد الحجاز. البرنامج الكامل لمواجهة انتشار الكوليرا ووقاية الحجيج المسلمين منها.

سيدي الوزير:

إن اللجنة الطبية الجديدة التي كنتُ ذكرتُ لمعاليكم أنها وصلتْ إلى جدة قدّمتْ إلى الحاكم العام لبلاد الحجاز الرسالة الوزيرية التي تعتمدها في مهمّتها. فأجابها الباشا بأن موسم الحج انتهى، وبفضل الله لم تظهر أمراض بين الحجيج. هذا القبول فاجأ أعضاء اللجنة الذين كانوا عند خروجهم من القسطنطينية يظنّون أنهم قدِموا إلى البلاد ليؤدّوا وظائف الأطباء: أحدُهم في جدة والثاني في ينبع والثالث في القنفذة والرابع يقوم بمراقبة الأعمال الصحية.

---

[32]) جملة غير مقروءة في الوثيقة.

[33]) كلمة غير واضحة بالوثيقة.

[34]) Nantes المحفظة رقم 1 الملف رقم 1 ص 110.

أما الباشا فإنه لم يُعلِم نائب القنصل الإنجليزي ولا أعلمني أنا بوصول هذه اللجنة. وأنا في جهل تام بذلك كحال الأطباء أنفسهم، فلا ندري ما هي التعليمات التي احتوتْ عليها الرسالة الوزيرية. فهل أرسل هؤلاء الأطباء إلى هذا البلد الجافي والذي هو غير مضياف ليضطروا إلى القول بأن البلد في غِنًى عن خدماتهم الطبية. إني أوافق على أنه لا توجد عندنا أمراض وبائية، والحمد لله على ذلك، ولكن هذه اللجنة عليها أن تداوي المرضى بالكوليرا إذا وُجدُوا وأن تقوم بالمراقبة الصحية في الموانى وفي الأماكن المقدسة. ألم تكن هذه اللجنة وافق عليها الباب العالي حتى تبحث عن الطرق العملية لتضمن حماية الأراضي المقدسة ضدّ أخطار الكوليرا. وإني أرجّح – يا سيدي الوزير – بأن الحكومة العثمانية أرسلتْ الأطباء النصارى إلى موانى الحجاز بعد موسم الحج وهي تعلم بوجود اللجنة الصحية التركية ومعها ستة أطباء مسلمين من مصر ليكون وضع الأطباء النصارى مضحكًا، خاصة وقد أسلمتهم إلى حاكمٍ لا يريد الاعتراف بهم.

إنه من المؤسف جدًا أن نرى أنّ وزارة الباب العالي بالقسطنطينية يقررون ذهاب أشخاص من النصارى للإقامة في مجتمع من الحجيج المتعصبين، مثل أولئك الذين يُقيمون في ينبع، في حين أنه في الأوقات العادية من السنة لم يكن في إمكان نصرانيين وحدهما أن يبيتا ليلة واحدة في ينبع. أما قنفذه فهي ليست إلا ركامًا. وقد أدركتْ اللجنة أنه لا يمكن إرسال أي شخص من أفرادها. ثم إن الطبيب الإيطالي المعيّن للعمل في ينبع جاء نيستشيرني في الأمر بعد أن بلغت روايات تشير إلى المخاطر المحْدِقة. ويسألني عن حقيقة هذه المخاطر في الذهاب إلى ميناء المدينة (ينبع) وهل عليه أن يلتحق بالعمل هناك؟ كان السؤال محرجًا. وفي هذه الأثناء كنتُ منشغلا بالأمن الشخصي لرجلٍ ممن تحميهم فرنسا وقد كان يبدي كثيرًا من المخاوف. فقرّرتُ أن أتّجه إلى فوجي باشا – حاكم هذه الولاية – لأسأله هل في إقامة طبيب نصراني بينبع ما يثير اضطرابات خطيرة؟ وما هي وسيلة التنقل التي ينوي أن يضعها تحت تصرّف هذا الموظف؟ فأجابني الباشا (بما تجدونه في رسالة تصلكم نسختها بعد هذا).

(وفي ما يلي نسخة هذه الرسالة):

أعلمني شريف مكة أنه أصدرَ توصية أمانٍ لهذا الطبيب (انظر التوصية المصاحبة) والطبيب هو الدكتور فِرُّو Docteur Ferro وقد كان داوَى شريف مكة عندما كان بالقسطنطينية.

وعندما أبلغتُ هذا الجواب إلى الطبيب المذكور رأى أن ليس في هذا ما يكفي من الأمن على حياته، وقرر أن يبقى هنا مع زملائه. يضاف إلى ذلك أنه لا يستطيع الذهاب إلى ينبع إلا عن طريق البحر على مركب صغير، وتدوم رحلته من عشرة أيام إلى أثني عشر يومًا. ويصل عندها إلى ينبع بعد مغادرة الحجيج لها. وعلى كل حال فإن هذه اللجنة وصلت متأخرة. وقد طلبت اللجنة من القسطنطينية أوامر جديدة وخاصة الترخيص لها في البحث عن المراكز الأساسية في شواطئ الجزيرة العربية على البحر الأحمر ليتمكن الباب العالي من أخذ الإجراءات اللازمة في المستقبل للحماية من الكوليرا.

إن الإجراءات الوحيدة الناجعة الفعّالة هي الوقوف لمحاربة انتشار الكوليرا بواسطة الحجيج المسلمين. وهو ما أشرتُ إليه في الرسائل السابقة بالأرقام 3، 4، 5، 6 و 9 التي وجهتها عن طريق إدارة القنصليات (بوزارة الخارجية). وقد وجهت الخطة للجنة إلى السيد بيليسي Monsieur Bélice والسيد سفير الإمبراطور بالقسطنطينية (إشارة إلى الرسالة الموجة إلى السفارة).

وبهذه المناسبة أطلب من معاليكم الإذن لي بأن أقدم عموميات الخطة والإجراءات التي تواجه انتشار الكوليرا بواسطة الحجيج المسلمين. أقدم هذه الخطة بعد تفكير متعمّق في ما عرضتُه مفصّلًا في مراسلات كثيرة إلى الإدارة.

إلى الآن، لا شيء يُثبتُ أنّ الكوليرا تظهر تلقائيا في بلاد العرب سواء في اليمن أو في نجد أو في الحجاز بين المتساكنين، وإنما يظهر المرض بين الحجيج المتجمّعين في البلاد المقدسة.

ففي سنة 1865 انتشر الوباء بكل قسوة بين الحجيج وأصاب الناس بسببهم في مكة ومنى وجدة والمدينة وينبع. فقد وصلت باخرتان إنجليزيان (ماري وروبي) (Marie, Rubis) قادمتان من بلاد البنغال حاملتان الحجيج. مات بعضهم بمرض الكوليرا قبل وصولهم إلى جدة. وذلك حسب رواية قبطانيهما. تضاف إليهما باخرتان إنجليزيتان أيضًا هما فريُو ونورث وند (Ferian –North Wind) قادمتين من سنغفورة أصيبتا بمرض الكوليرا في مكولا (ببلاد العرب على شواطئ حضرموت) مع بعض البواخر الأخرى القادمة من الهند إلى مرسى (ليثس Lyths) وكل هؤلاء الحجيج التحقوا بمكة.

ومن ناحية أخرى نلاحظ أنّ الكوليرا ظهرت أيضا في سنة 1864 في اليمن حيث انتشرت بواسطة القوافل واتجهت بذلك إلى الأراضي المقدسة. وهكذا فإن الوباء وصل وانتشر بواسطة الحجيج.

ففي سنة 1865 دخل الوباء إلى البلاد من ميناء Lyths ومن جدة. وتزايد أمره لأن الحجيج لم يتوقفوا ولو يومًا واحدًا عند وصولهم، بل التحقوا بالجموع في مكة. خاصة وقد ظهر في هذه السنة مرض مُعْدٍ في جزر سواكن يسمّيه أطباء البلد حمى....[35] وهي حمى خطيرة أصابت الكثير من الحجيج. مما جعلني ألاحظ عددًا هامًا من الموتى في مكة وفي بعض الموتى. بعض الملاحظين يقولون بأن الكوليرا ظهرت بمكة ثم وصلت إلى جدة ومن هناك انتشرت داخل البلاد ثم وصلت إلى الشواطئ بلاد العرب وأن المرض قد نشأ في البلاد وانتقل منها إلى الهند.

.... إن مصيبة هذا الوباء جاءت من اليمن ومن شواطئ حضرموت من مكولا ...... حسب الإفادات التي وصلت عن طريق أقوال قواد السفن من الانجليز.....[36]

[35]) كلمة مقطوعة من النص .

[36]) بقية الصفحة 113 مقطوعة الجانب الأيمن مما جعلها غير قابلة للترجمة نظرًا لنقص الكثير من الكلمات الأساسية لفهم النص.

إذا عرفنا أن هذه هي طريقة انتشار الكوليرا الهندية وطريقة نقلها السهلة بين الحجيج المسلمين فيجب الاحتياط . وإنني صممتُ طريقة لأخذ الاحتياط من هذا المرض الخطير، وهي طريقة أراها ناجعة وعملية، وذلك بعد أن فكرتُ فيها مليًّا فوضعتُ خطة لذلك. ولي الشرف أن أضع ذلك بين أيديكم.

وهذه الخطة تتكون من:

أ- إجراءات عامة وعالمية.

ب- إجراءات خاصة وإقليمية.......

وبقية الخطة وُجهتْ إلى معالي وزير التجارة.

ملاحظة: سعادة الباشا فوجي حاكم الحجاز أعلمني الآن بأنه نزولا عند رغبة كبار سكان جدة سمّى قائم مقامًا جديدًا لمدينة جدة السيد نور أفندي عوضا عن...... الذي كان يقوم بهذه الوظيفة.[1]

****

رسالة[37] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 6 جوان 186[illegible]م / 3 صفر 1284 هـ . وهي برقم 9.

سيدتي الوزير:

يشرفني يا معالي الوزير أن أعلمكم بأنه يمكنني أن اعتبر أنّ الحج إلى مكة وصل شيئا فشيئا إلى نهايته، والحجيج عادوا عن طريق مصر، ولم يبق هنا غير بعض المتخلفين عن الرجوع. ومنذ 25 يومًا فإن مراكب "العزيزية" لا تحمل إلا العدد القليل من الحجيج. أما الهنود فقد غادر أغلبهم ولم يبقَ إلا أهل جاوة الذين سيسافرون خلال الأيام الخمسة عشر القادمة.

---

37) Nantes نشرة رقم 1 ، ملف رقم 1 ص 180 – 184.

وخلال الأيام الأخير لاحظتُ ظهور بعض حالات الإسهال في المضارب الواقعة خارج أسوار المدينة. وهي حالات لا تمثل الإسهال الخطير، مما يسمح لي بأن أقول: إنه في موسم هذا الحج لم ألاحظ حالة واحدة من الكوليرا.

وقد أطلعنا الآن في مدينة جدة على وجود بعض حالات من الجدري، وهو مرض موجود في الحجاز وفي أماكن كثيرة من بلاد العرب الوسطى. فالوضع الصحي إذن مَرْضي.

سيدي الوزير، رغم أنّ حج هذه السنة قد انتهى دون أي تهديد من الكوليرا فلا بدّ من أخذ إجراءات شديدة لحج السنة القادمة، لأن النظام الصحي الحالي المعمول به يشتمل على أنقاص مؤسفة.

أولا: فإن الموظفين الصحيين من أتراك ومصريين لا يمكن أن يكونوا في مستوى الرسالة التي يحملونها عدى النادر القليل ممن يقوم بأعمالهم بشرف. وإننا لا نتوقع إصلاحًا من الباب العالي العثماني أو من مصر فنحن أقل ثقة في التراتيب الصحية ما دام تنفيذها سيقوم بها موظفون من هاتين الحكومتيْن. وسوف تظهر دائما مخالفات للتراتيب رغم كل الجهود المبذولة. هذا اقتناعي الراسخ الثابت لأنه كان نتيجة لتتبع دقيق قمتُ به منذ ثلاثة أشهر.

عندما كنتُ في طريقي إلى جدة مررتُ بمصر فضمنتُ التأكيدات التي قدّمتْ لي بشأن الإجراءات التي اتُّخذتْ بشأن الحج في هذه السنة. وكان لي الشرف أن كتبتُ إلى معاليكم ذاكرًا أن حكومةَ الخديوي لا تطبّق الالتزامات التي التزمت بها أمام اللجنة الصحية العالمية. فبعد التصريحات التي سمعتُها وبعد أن رأيتُه بنفسي فإني أكاد أصدق ذلك وهو أمر يؤسفني حقيقة.

أولا ما هي الأخلاقية التي تتمتع بها حكومة لا تتورّع أمام العالم المتحضّر أن تقوم بصفقات تجارية غير مشروعة بل ومخجلة من تجارة العبيد، وهي لا ترى في الحج إلا الجانب المالي وما تربحه الشركة المالكة للباخرة "العزيزية" التي تنقل كل الحجيج ...... وكأنهم حيوانات أو كأن الركاب بضائع سواء في المخازن أو على سطح الباخرة. إلى درجة أنني لاحظتُ وقد كنتُ مسافرًا على إحدى سفن هذه

الشركة أنها تسير على بركة الله ...... وأنا ضمن 750 حاج كنت أحسب أني في باخرة تنقل العبيد السود إلى أمريكا (Négrier).

ولو تتبّعنا تنظيمات هذه الشركة لوجدناها تنصّ على تراتيب الحماية الصحية (الكرنتينة Quarantaine) في البحر الأحمر، وهي من أهم التراتيب الإنسانية يفرضها القانون. ولكنها تنظيمات ليست هي إلاّ ألفاظا ميتة ولا معنى لها في بلد لا يعرف القانون وكل شيء فيه خاضع للتعسّف والميول الشخصية.

أما تفويج الحجيج فإنه – يا سيدي الوزير – يقع بالطريقة التالية:

يقع النداء في شوارع جدة والإعلام بأن الباخرة ستسافر بعد ثلاثة أيام، وعندها يكون على الحجيج أن يركبوا وبأقصى سرعة الباخرة ويبقوا في المرفأ إلى اليوم المحدّد للسفر. وعدد الركاب في السفينة يصل عددهم إلى 500 أو 600 شخص وهو عدد ضخمٌ بالنسبة إلى هذه السفن الصغيرة. وربما يقع بيع أماكن في الباخرة أكثر من حمولتها مثل أن تُركِبَ 700 أو 750 حاجا. ثم تقوم الشركة بتأخير سفر الباخرة وبقائها في الميناء يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام بدعوى ترقب وصول حجاج جُدُد. وخلال هذه الأيام يبقى الحجيج الراكبين في الباخرة والذين دفعوا أثمان ركوبهم مقابل أن يصلوا إلى السويس بسرعة فإذا هم يبقون على ظهر الباخرة التي تصبح وسخة قبل سفرها.

وهناك باخرة أخرى – وهي أيضا تابعة للشركة "العزيزية" – وصلت إلى ينبع ولم تجد العدد الذي تريده من المسافرين فسافرتْ إلى جنوب البحر الأحمر مُلزمة الحجيج بالرحلة من ينبع إلى جدة عوض أن تحملهم إلى السويس. وقد قامت بذلك دون أن تأخذ رأيهم في حين أنهم كانوا قد دفعوا أموالهم لذلك الغرض. وقد قرّر ربان السفينة أن يُكمل ملأها من المواني التي تبعد ستين فرسخا بحريًا عن طريق سفرها المقرر لها. ومثل هذا التصرف يحدث أحيانا على مرأى من الناس ومسمع. أليس من المشين أن يقع تغيير نظام سفر هؤلاء المسافرين التعساء الذين

دفعوا ثمن سفرهم؟ أليس في ذلك ابتزازهم ما يملكون إلى آخر فِلس؟ فماذا وجد هؤلاء التعساء من نتائج في سفرهم إلى هذه الصحراء؟

..........[38] وأن الشركة "العزيزية" والخديوي في مصر يستغلان جهل الحجيج ويتاجران بفقرهم.

وهكذا فإننا لا يمكن أن نطلب من الباب العالي ولا من مصر ضمان حفظ الصحة العامة. وبدلَ أن نترك لهاتيْن الحكومتين الإشراف على الصحة وهما عاجزتان عن حفظها. علينا أن نقوم بواجب الدفاع عن هؤلاء الحجيج البؤساء الذين هم يُسلبون ويُستنفذون بصفة شنيعة. ويكون من الصالح والمفيد أن نتولى نحن هذه المسألة دفاعا عن هؤلاء الذين يريدون أداء حجّهم دون أن يضعوا حياتهم في خطر، مجازفين بصحتهم ومُضَحِّين بما جمعوه من مال خلال سنين طويلة. لقد حان الوقت لتجنب الأخطار التي يمكن أن تحدث فتثير سُخط الحجيج. ففي السنة الماضية وقع تركُهم في ينبع دون أبسط غذاء، فثاروا في المدينة وأوشكوا أن يدمّروا المدينة بغضبهم. وإذا دام هذا الوضع ولم نضع حدًا لهذا القلق والغضب السائد بيْن الحجيج منذ سنتيْن. وهو أمر يزداد يوما بعد يوم ويأخذ شكلا خطيرًا، ولا يترك للنصارى إمكانية الحياة في أمن. ولعله من المفيد أن أعيد القول لتأكيد القاعدة التي هي – العنف يولّد العنف – . وسوف نرى عودة الأعمال الفظيعة والشيطانية التي وقعت سابقا يوم 15 جوان 1858م / 3 ذي القعدة 1274 هـ . وهذا إذا نجحت حكومة الحجاز في الضغط على التعصب والتزمّت الديني الذي قد تثيره هي بمواقفها.

وإذا لم تتداخل القوى العظمى بصفة جدّية وتطلب منع التجاوزات في مسارات النقل البحري لا نصل أبدًا إلى النتائج التي كنت أعلمت بها معاليكم في مراسلاتي السابقة. وبما أن مصر والباب العالي حكومتان فاسِدَتان إلى درجة تجعلنا لا يمكن أن نتصور أو نعتقد صحة وصدق أقوالهما في خصوص الحج إلى مكة. فإن الحج بالنسبة لإحداهما أمرٌ شكلي سياسي وبالنسبة للثانية مسألة مالية -كما بينته

[38]) فقرة غير مقروءة في الوثيقة.

سابقا -. وإن الشعوب الإسلامية عاجزة عن ردّ الفعل أمام هذا العمل القذر والمثير المزعج ضد عقيدة المسلمين. وكأن الجانب الديني يُقصي الاهتمام بالجانب الصحي. ويمكن أن نستنتج من ذلك بأن الإجراءات المضحكة المتّخذة والانفلات الكامل سيجعلنا نرى عودة الوباء الخطير من جديد.

إن تأسيس لجنة طبية عالمية سيقدم ضمانات جديدة - رغم أوضاع هذه السلطات - ذلك وبسبب براعة أطباء اللجنة وتصرفاتهم التي ستبلغنا إلى النتائج التي نترقبها. لقد حان الوقت لنصل إلى نتائج سريعة وناجعة، ولا نستطيع أن نحصل على ذلك ما دام البحر الأحمر لم يُمنَع عن الحجيج الواردين من أوروبا والشرق الأقصى.

وأن اللجنة الصحية العثمانية سافرت يوم 1 جوان إلى مضيق باب المندب.

تقبلوا سيدي الوزير ....

****

رسالة [39] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 31 أوت 1888 / 23 ذي الحجة 1305 هـ ، وهي برقم 6. وعليها عنوان جانبي يدل على أنّ الرسالة موجّهة إلى (مكتب الشؤون القنصلية).

سيدي الوزير:

في الرسالة التي وصلتني من سفارة فرنسا بالقسطنطينية بتاريخ اليوم الأول من هذا الشهر بلغني الأمر بتعييني على وظيفتي القنصلية مع البراءة والضبط الأميري، لأقدّم ذلك للسلطات المحلية حتى يعترفوا بصفتي قنصل فرنسا في جدة. في حين أنّ معاليكم في رسالتكم المؤرخة بيوم 5 جويلية الماضي وضحتم لي بأنكم تقترحون بأن يلحق ضمن دائرة إدارتي القنصلية بجدة المناطق التالية: الحجاز

---

[39]) Nantes ـ حافظة رقم 3 ـ ملف رقم 1 الصفحة 21 ـ 24 .

وعسير واليمن وحضرموت والمهرة، وكذلك نجْد وجهات صحراء سوريا إلى جهة الإحساء وعُمان وهو ما يشمل كل جزيرة العرب إلا سواحل الخليج الفارسي.

إنّ النصيْن اللذيْن صدرا عن الباب العالي لا يذكران إلاّ جدة فقط، وبذلك يمكن لوالي الحجاز أن يدّعي ما صرّح به أخيرًا بأنه في مكة لا يعترف بقنصل ولا بمنصل (Ni consul ni monsul) [40] وبديهي أني لا أطلب لقنصلية فرنسا بجدة مدّ سلطتها المباشرة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولكن أعرف أنّ هاتين المدينتين اللتين لهما أحكام خاصة لا تخضعان لما تخضع له المدن الأخرى (من المعاملات الدبلوماسية) لعله يكون من المناسب أن يقع تحديد قانون وسط تقع به تسوية مُرضية للطرفين modus vivendi اتفاق قنصلي خاص يسمح لنا بحمايةٍ ولو غير مباشرة لمواطنينا الواردين إلى الحجاز كل سنة لأداء الحج.

بلاد الحجـــاز هي ما كـــان يُعـــرف قديما ببلاد العرب الصّخْرية Arabie petrée وهي تمثّل كل الناحية الغربية من بلاد العرب عمومًا. وهي الواقعة بين أرض مدْيَن واليمن وشواطئ البحر الأحمر، وحدودها الداخلية غير واضحة المعالم وهي تحدّ بالأماكن التي تقف عندها أحكام وسلطة شريف مكة. فهي منطقة رملية موحشة مجدبة تسيطر عليها القبائل البدوية التّي هي غير خاضعة لأحد. وفيها لا توجد أي علاقات ولا أحكام قنصلية خارج مدن مكةَ والمدينة والطائف التي هي بلد إقامة الوالي. وينبع التي هي ميناء على البحر الأحمر يمكن أن تكون لنا بعض المصالح في وضع وكيل قنصلي (Agent Consulaire) ففي كل سنة ينزل بها عدد كبير من الحجيج ويكثر عدد الواردين عليها من المدينة للرجوع إلى أوطانهم.

وأترك جانبا بلاد عسير الجبلية التي لا يدخلها حتى الأتراك أنفسهم وهي خاضعة لقبائل شبه مستقلة. واليمن ولاية مستقلة عن الحجاز وهي داخلة في حدود ولايتي القنصلية. وإنه من المفيد أن نطلب من الباب العالي لها معاملة خاصة

---

[40] كذا ورد في النص.

وحكما خاص. تُمثل بلاد اليمن مثلثا في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية يحدّه من الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب خليج عدن ومن الشمال أراض منحنية متجهة إلى الصحراء وهي التي كان الجغرافيون القدامى يسمونها بلاد العرب الصخرية Arabie petrée بمرتفعاتها المكسوة بشجر الدفلى وبالأشجار العالية. وفيها الأودية المزروعة المدرّجة باللون الأخضر. هذه الولاية الهامة لها على البحر الأحمر مرسى الحديْدة ومرسى مخا. والحاكم العام لليمن يسكن صنعاء وهي مدينة كثيرة السكان تجارية وصناعية. ولبلاد اليمن أهمية تجارية بالنسب لنا يكون من الأكيد عدم إهمالها.

تبقى بلاد نجد التي يظهر على سكانها غزة النفس والحرية مع كراهيةٍ شرسةٍ للأتراك، فالعثمانيون عندهم هم الأعداء. ويكون من المصلحة السياسية لنا أن نحافظ على علاقات متواصلة مع الأمير ابن الرشيد الذي يخطط من أعالي جبال شمر الغنية ومن مدينة حائل عاصمته ويهيّئ نفسه لمستقبل، ويترقب يوم انهيار الإمبراطورية العثمانية ليؤسّس دولة عربية، بعد أن وقع تحطيمها سنة 1817م / 1232 هـ على يد ابراهيم باشا. وفي مناسباتٍ متنوّعة أظهر صاحب حائل (ابن رشد) ميلا وودًّا لفرنسا وأخيرًا قدّم على ذلك حججًا واضحة عندما أعاد المتاع المنهوب للرحالة الفرنسي المكتشف عديم الحظ السيد هوبر Huber. وإن حذر الأتراك وعجرفتهم لا تسمح لقنصل فرنسا بجدة بربط علاقات مباشرة مع ابن الرشيد، وهو أمر يؤسف له.

إنّ هذا العرض الموجز للتعريف بالمناطق التي تتكون منها بلاد العرب يؤكد ما كنتُ كتبتُه لمعاليكم يوم 18 جويلية الماضي بأن تسميتي على وظيف قنصل هي مسألة شكلية أكثر من كونها حقيقية، ولذا يكون من المناسب تعيين حدود عملي بصفة واضحة. وإن عملي في الحجاز يتطلب أمرًا تنفيذيًا آخر يمكنني من العمل في اليمن. وهو بلد له أهمية سياسية واقتصادية وصناعية.

****

رسالة [41] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 7 سبتمبر 1888 / 1 محرم 1306 هـ ، وهي برقم 7. وعليها عنوان جانبي يدل على أنّ الرسالة موجّهة إلى (إدارة الشؤون التجارية والقنصلية).

سيدي الوزير:

إن السفينة المسماة بالمحروسة وقد أُعْطيتْ الحماية الفرنسية أخيرًا (يوم 11 ماي 1888 من إدارة الشؤون التجارية والقنصلية) بدأت رحلاتها الساحلية (في البحر الأحمر) فلم تكن موفقة. يصلكم مع هذه الرسالة احتجاج من السيد عبد القادر التلمساني إذ أنّ رُبّانها يذكر أن سفينة المحروسة استولتْ عليها باخرة حربية مصرية وتوجهتْ بها إلى سواكن أيْن حُبستْ إلى اليوم.

عند بلوغ هذا الخبر أبرقتُ إلى السيد القنصل العام بالقاهرة ورجوتُ منه حفظ مصالحنا الوطنية المتمثلة في الباخرة المحروسة.

وألاحظ أنّ سفينة عربية تُبْحر تحت حماية فرنسية وتقوم برحلات ساحلية في البحر الأحمر ستكشف ضعف السفن المصرية وتثير غيرتها لأنّ هذه السواحل عادة ما تكون من اختصاصها. ثم ألم يكن احتجازهم للسفينة وحجزهم على بعض الشواطئ دليلا على ذلك؟ ثم ما هي أهمية ذلك؟ هذه المسائل لا يقدر على الحكم فيها إلا إدارة القنصلية الفرنسية بالقاهرة.

* * * * * * * * * * * *

[41] Nantes الحافظة رقم 3 . الملف رقم 1 الصفحة 25.

رسالة [42] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 10 سبتمبر 1888 / 4 محرم 1306 هـ ، وهي برقم 7. وعليها عنوان جانبي يدل على أنّ الرسالة موجّهة إلى (إدارة الشؤون السياسية).

سيدي الوزير،

في اليوم الرابع من هذا الشهر ركب قائم مقام جدة على باخرة حربية عثمانية ومعه 300 رجل من الجيش واتجه نحو رابغ. ورابغ ميناء صغير على البحر الأحمر يقع في منتصف الطريق بين جدة وينبع. وإن مائتيْ سوداني من أنصار المهدي كانوا قد نزلوا في هذا المكان لتحريك ثورة الأعراب. فمنذ سنتين قام العديد من الجواسيس من أنصار المهدي إلى بلاد الحجاز وتنقلوا فيها لغاية التأثير على السكان البدو المتنقلين حول مكة يحركونهم نحو ثورة ضد الحكومة التركية التي غضبتْ وأطاحتْ بالكثير من الرؤوس السودانية. ثم أخيرًا قرّر الباب العالي أن يضاعف عدد جيوشه في الحجازحتى يبلغوا 8000 رجل ويكونون تحت القيادة الخاصة لعثمان باشا الذي كان واليا قبل صفوت باشا. أما الوالي الحالي فإنه أصبح يجمع السلطتين الإدارية والعسكرية. ففي يوم 6 من الشهر الحالي وصل 2700 من الجيش المشاة من القسطنطينية إلى جدة.

ورجع القائم مقام البارحة ليلا فاعترف بأن اشتباكًا حصل بين الأتراك والبدو فمات فيه من الجانبين بعض الرجال. وهو يدّعي أنّ هذا الحادث لا أهمية له. في حين أنه في صباح هذا اليوم أرسل فرقة من الجيش لتقوّي حامية ميناء رابغ.

****

---

(42) Nantes مذكرة رقم 3 ، ملف رقم 1 الصفحات 25 – 26.

رسالة [43] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلــى وزيــر الخارجيــة الفرنسية بتاريخ 10 سبتمبر 1888 / 4 محرم 1306 هــــ ، وهــي بــرقم 8. وعليها عنوان جانبي يدل على أنّ الرسالة موجّهة عن طريق الإدارة السياسية في الجنوب والشرق.

سيدي الوزير،

أعلمكم بأني توصّلتُ بالبراءة والضبط الأميري من طرف الحاكم العثماني الذي خاطبني بصفتي قنصل عند سلطة مدينة جدة. وكان لي الشرف بإعلام معاليكم في رسالتي رقم 6 بتاريخ 30 أوت بضرورة تسليمي تسمية إضافية جديدة تشمل ولاية اليمن. فإذا وقعت موافقتكم على ذلك فإني أرجو من معاليكم الإذن لي بالسفر إلى صنعاء لأقدم بنفسي إلى الوالي حاكم اليمن أوراق اعتمادي كقنصل فرنسا في اليمن.

فاليمن أو هو الذي كان يسميه الجغرافيون القدامى باليمن السعيد (Arabie heureuse) بلاد سهول تشتمل على جبال ترتفع بعضها فيختلف طقسها على طقس الحجاز. بعض الرحالة شبّهوا اليمن ببلاد القبائل في جبال جرجرة (بالجزائر) فجبالها معظمها مخضرة وتظللها الأشجار العالية وفيها مياه متوفرة وأهلها حضر وكثيرون. وصنعاء وهي عاصمة الولاية مدينة كبيرة مبنية بناءً حسنًا وعدد سكانها هام. وهي مدينة صناعية وتجارية متصلة بالسواحل بواسطة طرق متعددة ومهيّأة وهي مفتوحة للأوروبيين. لليمن ميناءيْن كبيريْن: مخا وهو ميناء لم يبقَ الآن مركزًا رئيسيًا لتجارة القهوة كما كان سابقا، حتى أن القهوة نُسبتْ إليه. وقامت مدينة الحُديْدة مكانه في ذلك فأصبحت تملك حركة تجارية جعلتها هي الميناء الحقيقي لصنعاء.

---

[43] Nantes دفترة رقم 3 . الملف رقم 1 الصفحات 27 ـــ 28.

وإني أرى أنه من مصلحتنا السياسية والتجارية تنصيب وكيل قنصلي في الحديْدة وفي صنعاء، ومن المؤكّد إنه سيأتي يوم تدخل فيه التجارة الفرنسية في هذه المنطقة التي نُهملها اليوم وتكون المواقف الفرنسية مثالا يتابعه المنافسون لنا من الأجانب الذين سيأتون للاستقرار والاستفادة من الوكالات التجارية في المناطق البعيدة ذات الطقس السيّئ. فإن التجارة الأوروبية بجدة ممثلة في الشركة الهولندية التي تقوم بالملايين من العمليات التجارية في الحديْدة وصنعاء، كما يوجد تجار أوروبيون من ألمان وإنجليزيين ويونانيين وإيطاليين. فالفرنسي وحده هو الغائب.

ومن الناحية السياسية فإنه يجب أن نلاحظ وجود العديد من الضباط الإنجليز منذ سنتين يقومون بأعمال طبوغرافية (مسح الأراضي) متواصلة. ويمكن أن نتوقع قرب الساعة التي لا تكتفي فيها إنجلترا بأن تكون عَدَن عندهم مجرّد ممرّ بحري بين لندن وبمباي فيتجهون إلى امتلاك الأراضي الغنية الواسعة التي كانوا قد امتلكوا طرقاتها التجارية إلى عدن.

وإذا رأيتهم – يا معالي الوزير – بعد هذه النقاط من وجهات النظر أن فرنسا سيكون لها بعض المصلحة من إنشاء نيابة قنصلية في الحديْدة وأخرى في صنعاء فأنا على أتمّ استعداد للسفر لليمن يوم 15 أكتوبر فإنه في تلك المدة لا يوجد بجدة ولا في الحجاز من الحجيج أحد وأستطيع أن أبتعد عن جدة دون مانع من ذلك.

****

رسالة [44] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ 8 أكتوبر 1888 / 2 صفر 1306 هـ، عن طريق الإدارة السياسية. بالهامش عنوان جانبي نصه: تغيّرات محتملة في الإدارة العليا بالحجاز.

---

[44] Nantes بكرة 3 ، الملف 1 الصفحات 58 ـ 59.

سيدي الوزير،

أعلمكم بأن أحمد السعد المستشار سابقا وصديق السلطان العثماني ومعه شرف الدين رئيس الخصيان في القصر العثماني وصلا إلى الحجاز ومعهما ثمانية خصيان وثلاث نساء من حاشية القصر. ويُذكر أنه وقع كشف مؤامرةٍ ضد حياة عبد المجيد (السلطان).

إن أحمد السعد وصل إلى جدة يوم 5 أكتوبر فسافر مباشرة إلى مكة حيث سكن واستقرّ. أما الخصيان والنساء النازلين بينبع فقد اتّجهوا بسرعة إلى المدينة.

يبدو أن أحمد السعد فقدَ الحظوة عند الدولة ويظهر أن هذا يُنذر بأن الشريف عون سيفقد الحظوة أيضا، وبعد أن كان أكثر الناس حظوة عند القسطنطينية فإنه أصبح أكثر خشية من ذلك. لقد جمع أعيان مكة وبمحضره جعلهم يضعون خواتمهم وإمضاءاتهم على عريضة مكتوبة قبل حضورهم موجّهة إلى السلطان. وضمن العريضة هنّأ الممضون أنفسهم بحسن إدارة الشريف للبلاد وعبّروا على رغبتهم في إبقائه على حكم مكة. في حين أنه لم يسبق للمجتمع الحجازي أن يكون كَرِهَ شريفا آخر بمقدار كراهيته لهذا الشريف فابتزازه للناس الذي فات الحد وتعسّفه الذي يطبقه عليهم دون سبب يجعلهم يكرهونه على عكس ما ورد في الرسالة. ويزداد غضبُهم عليه بما يحدث من سلوك الوالي صفوة باشا الذي شاخ وخرف. ويقال: إن الوالي المذكور قدم استقالته منذ شهر وهو يترقب وصول مَن سيتولى وظيفة بعده.

إذن يجب أن ننتظر قريبًا تغييرات كثيرة في الإدارة العليا للحجاز.

بعد تحقيقٍ جديدٍ حول شخصية سي عبد القادر ابن محيي الدين ، وهو ابن عم الأمير عبد القادر لقد اقترح (عبد القادر بن يحيى الدين) على السيد الكنت دي منتلّو Mr le Comte de Montebello أن يصبح ممثلا لدولة فرنسا في مكة. وليس لي حوله معلومات كافية، بل قيل لي بأنه غير معروف. ثم علمتُ أنّ هذا الرجل يسكن في مكة حيث يُشرف على مدرسة صغيرة. يُذكر أنه غادر تونس عند

استيلاء فرنسا عليها ليأتي ويسكن بمكة. ومنذ ذلك الزمن قام برحلات عديدة إلى الجزائر ليقيم في الزاوية الكبيرة بواد دكري عند الشيخ الحملاوي.

فإذا سمحتْ الظروف بالاستفادة من خدماته يحسن أن نستخبر عن ماضيه في تونس وفي الجزائر.

****

رسالة [45] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ 8 أكتوبر 1888 / 2 صفر 1306 هـ، برقم 12 عن طريق الإدارة السياسية. بالهامش عنوان جانبي نصه: في الإخبار عن بعض الحجيج الجزائريين ليُعلم بهم الحاكم العام للجزائر.

سيدي الوزير ،

اغتنمتُ فرصة إقامتي بينبع حيث وقع لي مع الجزائريين لقاءٌ حميمٌ. وقد ذهبتُ لأطلع عن كثب وأعاين بعض الأشخاص الذين وقع التبليغ عنهم بسبب مواقفهم العدائية لفرنسا. ويبدو لي أن ثلاثة منهم يجب أن يُذكروا:

- الحاج عبد بن الهاشمي ساكن بالدهالسة (الجزائر) في دائرة تيهرت.
- ابن سليمان ولد محمد بن عيسى ساكن في فرندة.
- الحاج عيسى ابن الشيخ، وهو ابن القاضي السابق للأغواط وقد عُزل.

لفتَ انتباهي وجود أشخاص يبذلون جهودهم لصرف بعض مواطنيهم عن ركوب الباخرة الفرنسية "الغالية Le Gallia" ويقومون بالدعاية للباخرة الإنجليزية. وقد راقبتهم بصفة خاصة ولاحظتُ أن مواقفهم كانت معادية لفرنسا. وفي بعض الأيام كانت حركتُهم ضد الباخرة Le Gallia شديدة مما جعلني استدعيهم فأعلمتهم

---

[45] Nantes شكرة 3 ، الملف 1 الصفحات 59.

بأنهم إذا لم يتراجعوا عن ذلك ويتحفظوا في مواقفهم فإني سأرسلهم إلى إفريقيا مجانًا في خزّان نفس السفينة الفرنسية.

في كل سنة تغادر مكة مجموعة من المطوّفين المتدينين متابعين الحجيج إلى بلدانهم الإسلامية ليقوموا بالدعوة له وإبلاغ مبادي الرسول [صلى الله عليه وسلم] ويجمعون بالمناسبة العطايا التي يتقرّبون بها. وهم في الغالب رجال دين متزمتون يجب أن تقع مراقبتهم.

لقد اطّلعتُ وأمضيتُ بالموافقة على جواز سفر اثنين من الموظفين سيسافرون إلى الجزائر. أولهما أحمد بن مشا مصاحبًا للحاج ابن العابد بن الهاشمي من تاهرت، وهو الذي ذكرناه سابقا.

ثانيهما الدرويش مصطفى مصاحبًا ابن نصر القائد السابق لناحية الأغواط.

وقد كنتُ أشرْتُ في التقرير الذي وجّهته لكم عن حج سنة 1888 م / 1305 هـ إلى أن هذا الرجل "ابن نصر" من المتزمّتين، وهو مرتبط بعلاقات متواصلة مع أشخاص من الحركات الدينية بمكة. ومنذ ذلك الوقت قابلتُ هذا الشاب في ينبع بعد أن وضعت عليه مراقبة متواصلة. وبما أنه من واجبي أن ألتزم بالحقيقة فأني أقول: إنّ هذا الرجل ملتزم التزاما تاما بفروضه الدينية، ويظهر عليه فكر متزمّت، ورغم ذلك فإنه كان في تصرفه لائقًا كتصرف الرجل الفرنسي. وتمّ بعد ذلك رفضًا رفضًا باتًّا تسعية ضد الباخرة Le Gallia ، وهي الباخرة التي حملته بعد ذلك مع جملة خدمه.

****

رسالة [46] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 31 ديسمبر 1888 / 27 ربيع الثاني 1306 هـ ، وهي برقم 6. وعليها عنوان جانبي نصه : تقرير اقتصادي سنة 1888.

سيدي الوزير،

تقع مدينة جدة في الخط "28 °N. lat 21 و 34° 13’ 45 long. (خط العرض وخط الطول) وهي المركز الرئيسي لوصول الحجيج القاصدين مكة. أنه لا يوجد فيها مرسى – كما يجب أن يكون – (أي مقارنة بما تكون عليه المراسي في أوروبا). فإن البواخر المتوسطة الحجم والسعة تقف بعيدًا عن الشاطئ بما لا يقلّ عن 2500 م تمنعها الشعاب المرجانية التي قد تتخللها بعض البحيرات المغطاة بالأعشاب البحرية الجديدة وكذلك بقايا هذه الأعشاب البحرية القديمة التي تُصدّر رائحة كريهة تُفسد الهواء وتجعله غير صحي. وإن أحجار الشعاب المرجانية تمتد بعيدًا في البحر وتكوّن أحواضا كبيرة تختبئ فيها السفن في حالات الاضطرابات الجوية فتكون لها ملجأ يجعلها لا تتأثر عند اضطراب البحر. وإن الرياح التي تمرّ على المنطقة عادةً هي التي تأتي من الشمال أو من الشمال الغربي أو من الجنوب......

إن دخول المراكب إلى هذا الميناء لا تكون في الليل بسبب انعدام الأضواء الدالة على الطريق ولذلك فهي تدخل إلى الميناء في النهار.

إنّ المسافة بين جدةَ والسويس هي 638 ميلا وبينها وبين ينبع 90 ميلا وبينها وبين سواكن 179 وبينها وبين مصوّع 368 ميلا وإلى الحديدة 493 ميلا وإلى عدن 716 ميلا.

---

[46]) Nantes علبة رقم 3، الملف رقم 1 الصفحة 81 – 101 .

يحيط بالمدينة سور محصّن بأبراج متتابعة. وهي أبراج رديئة مزودة ببعض المدافع في حالة سيئة مصابة بشقوق، أهملتها عناية السلطان العثماني فازدادت الشقوق اتساعًا كل يوم.

أبواب المدينة على سهولٍ منخفضة رملية لا نبات فيها، مع وجود بعض الكثبان العالية من الرمال، وراءها جبال عالية ذات منظر مقفر، عليها حجارة محروقة بحرارة الشمس فتصير محمّرة مما جعلها تسمى " بلاد العرب الحجرية " (Arabie Pétrée).

البيوت في المدينة مبنية بحجارة من الشعاب المرجانية ترتفع إلى 3 أو 4 أدوار وفوقها سطح، واجهات البيوت ملبسة بمشربيات عريضة في تزويق فني كبير، فيرى فيها القادم على المدينة منظرًا نادر الجمال. لا شيء أجمل ولا شيء أغرب من خشبها المنحوت بصفة رقيقة ورشيقة بأشكال هندسية عربية الكثير منها يذكرنا بعبقرية الفن الإسلامي في مدينتيْ غرناطة وإشبيلية.

ومع ذلك فإن المدينة لا تحتوي على آثار مبانٍ عظيمة، فالمساجد بُنيتْ بكل بساطة في مدينة تُعتبر مدخلا لمكة "بيت الله" مدخلا للكعبة التي يأتيها في كل سنة مئات الآلاف من المسلمين من كل جهات العالم ليقوموا بحججهم عند مكان وُلد فيه الرسول.

يتكوّن سكان مدينة جدة من أجناس مختلفة، يصل عددهم إلى 20.000 نسمة تقريبا وأغلبهم من حجيج بقوا بالبلد من مصر والهند والملاوي الجاوة ومن أهل حضرموت ومن مغاربة. مع العديد من التكارنة والأفارقة من النوبة. والعبيد يؤلفون خمس السكان.

في رواية عربية قديمة يُذكر أنّ أم البشر حواء دُفنتْ بجدة حيث يوجد قبرها. وقبل أن يغادر الحجيج جدة إلى مكة يقومون بزيارة القبر ويدعون عنده، والنساء يعتنين أكثر بهذه الزيارة. بُني هذا القبر في وسط مقبرة ذات سياج توجد في الشمال الشرقي خارج المدينة بين الباب الجديد وباب مكة. وأرضها ضيقة وطوينة متوازية

الأضلاع، طولها 146 مترًا وعرضها من ناحية الرأس 4 أمتار وفي الناحية السفلى 4 أمتار وستين صنتمتر. في وسط هذه الأرض أقيم مبني زاوية صغيرة تحت قبّتها منصّة نعش مغطّى بزربية حريرية خضراء مطرزة بالذهب، تغطّي تحتها البطن الذي حمل بالإنسانية. وعندما يدفع الزائر بخشيشًا يفتح وكيل الزاوية الباب ويرفع الرداء الأخضر ليرى الزائرون قبرًا بُنِي بحجارة سوداء رطبة، طول القبر متر ونصف وعرضه متر واحد وعمقه نحو نصف متر،

وفيه قطعة خشب من صندل. وتذكر الرواية أن هذا المكان انطلقت منه الحياة البشرية، وحسب ما يرويه الحجيج فإن هذا المكان هو سُرّة أم النوع البشري. أما جسم هذه الأم الولود فقد كان كبيرًا إذ يوجد رأسها بالمدينة المنورة وأرجلها في إفريقيا.

حرارة مدينة جدة دائما مرتفعة متوسط حرارتها يبلغ 37° درجة، وفي الشتاء 25 درجة وما يجعل طقسها قاتلا غير متحمّلٍ من الأوروبيين هي الرطوبة الجوية العالية التي تبلغ متوسط 70 في المائة. فإن طبقة كثيفة من البخار الثقيل يمكن أن نشبهه بالجو الندي الثقيل البخاري الذي نجده في الحمام....

ومدينة جدة هي المركز الرئيسي للجنة الصحية الدولية التي أسِّستْ في البحر الأحمر لمراقبة الحالة الصحية للحجيج المسلمين الذين نقلت منهم سابقا خلايا مرض الكوليرا في البحر الأبيض المتوسط. والإدارة الصحية لهذه اللجنة المكونه من طبيب مراقب وبعض الموظفين ثم طبيب معاون.

ويوجد في جدة مستشفى غير حسن الرعاية والتنظيم. وهو على كل حال غير كاف، فإنه لا يقبل أكثر من 70 مريضا وتشغل الحامية العسكرية عادة منه 40 في المائة من المرضى. ويقوم على هذا المستشفى طبيبان عسكريان عثمانيان.

وبما أن مدينة جدة هي المركز الرئيسي لولاية الحجاز فإن الوالي أو الحاكم العام لا يسكنها. فهو يقيم بمكة خلال فصل الشتاء وفي الصيف يقيم بالطائف حيث

يجد هذا الموظف التركي السامي الماء والحضرة والطقس المناسب، وهو ما لا يجده في بقية البلاد.

ويمثل السلطة العليا في جدة موظف يُطلق عليه " القائم مقام ".

أما الحامية العسكرية فهي تتكون من 1000 جندي من مشاه وخيّالة ورُماة، منهم 500 جندي يشغلون مراكز صغيرة لحماية المدينة من هجمات البدو لضمان أمن الطريق إلى مكة. كما يوجد 50 ضابطا بوليسا يقومون على أمن المدينة.

إن الدول الاوروبية الإسلامية (يعني التي لها بعض الرعايا المسلمين أي الدول المستعمرة) وهي إنجلترا وفرنسا وهولندا هي وحدها التي لها قنصليات في جدة. أما النمسا والسويد والنرواج واليونان فلها موظفون قنصليون.

ترتبط جدة ومكة بالبلاد الأوروبية بواسطة سلك تلغرافي، وهذا السلك يمرّ عبر البحر فيصل إلى سواكن. وتعريفة الاتصالات بالفرنك الفرنسي هي:

تركيا وأوروبا	2.75
مصر	2.85
الجزائر وتونس	4.05
عدن	3.40
سواكن	1.50

أما عن البريد العثماني فإن الرسائل بواسطته تصل بصفة منتظمة مرة كل خمسة عشر يومًا، وذلك بالتعاون مع الشركة المصرية "الخديوي".

تستهلك مدينة جدة ماء الشراب مما يتجمّع في خزانات تضاف إليها مياه عين صغيرة. وهو ماء أجاجٌ فيه ملوحة يتجمّع في الرغامة في طريق مكة ويصل إلى جدة بواسطة أنابيب على مسافة 8 كلمترات. أما الماء المحمول على ظهور الجمال فهو فاحش الغلاء، فحمولة جمل تباع بنصف دينار (وحمولته 16 قربة، والقربة تحمل 10 لترات). وخلال الشتاء إذا لم تنزل المطر ولم تمتلئ الخزانات بالمياه

تصل حمولة الجمل من الماء إلى ثمن 3 أو 4 جنيهات. والجنيه يســــاوي 3.751 فرنكًا.

إن حياة الحيوانات ليست سهلة في جدة بسبب أن البلاد الصحراوية تحيط بالمدينة مع غلاء التموين وندرته. يوجد بعض البقر وبعض الخرفان والمعز والدجاج الهزيل. وكله غالي الثمن جدًا. وتوجد الخضر من بصل وكرنب ولوبيا وموز ودبّاء وطماطم وسلق، فإنها تأتي من مكة ومن الطائف، وإن واحة الطائف تنتج في ما بين شهريْ أغسطس وأكتوبر نوعًا رائعًا من العنب ومنه النوع المسمى "بالشاوش" تقع زراعته هناك وهو مشهور في كل بلاد الشرق.

الحركة البحرية:

الحركة البحرية في ميناء جدة خلال سنة 1888 وصلتْ إلى عدد 932 سفينة احتوتْ على 265.724 برميلا من البضائع.

الشركة المصرية " الخديوي " تقوم برحلتين كل شهر من السويس إلى عدن وتمرّ بجدة وسواكن ومصوع والحديدة.

وشركة Lloyd النمساوية تقوم بنفس الرحلة السابقة مرة واحدة في الشهر إلا أنها ليست منتظمة المواعيد.

وشركتان بحريتان تصلان إلى جدة في غير انتظام زمني هما شركتا Persian Gulfe et Holt. والشركة الثانية أقلّ أهمية من الأولى لا تمتلك إلا 4 سفن بين Cardiffer والبصرة عن طريق مرسيليا والجزائر ولكنه لا يمرّ بجدة إلا مرة كل شهرين.

وبداية من شهر فبراير إلى شهر يوليه تمرّ باخرة هولندية مرتيْن كل شهر في رحلات منتظمة بين أوربا وبلاد الهند وتمرّ بمرسيليا وتنقل الحجيج الجاوة الوارنين إلى الحجاز، وهم يسبقون الحجيج الآخرين.

وبالإضافة إلى هذه الرحلات المنتظمة نذكر الحركة البحرية الكبيرة التي تقع في وقت الحج لنقل الحجيج ذهابا وإيابا. ففي شهر أغسطس سنة 1888 عددنا 24

باخرة وصلتْ إلى ميناء جدة. والإحصائية التالية الدقيقة توضّح لنا النسبة المائوية لنقل الحجيج من طرف مختلف الشركات الغربية:

جنسيات السفن	عدد الحجيج الواصلين إلى جدة	النسبة المائوية
إنجليزية	21.330	43.50
مصرية	11.227	23.50
عثمانية	5.114	10.50
نمساوية	3.537	7.25
هولندية	2.283	4.75
ايطالية	1.593	3.25
فرنسية	1.732	3.5
زنجيبارية	1.750	3.5
ألمانية	1.490	2.75
الجملة	48.642	100
الواصلين إلى ينبع وخاصة	1.569	
عن طريق شركة الخديوية	4.710	
الجملة	54.931	

وأُلحِقَ أيضا بهذا التقرير قائمة توضّح الحركة العامة للنقل البحري من ميناء جدة من سنة 1877 إلى سنة 1888 بدخول الغايتين. فيها تعداد عدد السفن وحمولاتها:

جنسيات السفن	عدد السفن	حمولتها	ملاحظات
إنجليزية	80	94.911	نقل غير منتظم
مصرية	71	43.110	نقل منتظم بريدي عن طريق 700 سنبوك تحمل بين 25 و35 برميلا
عثمانية	720	39.000	
نمساوية	26	31.052	

هولندية	15	37.829	
ايطالية	5	4.080	
فرنسية	6	5.281	من بينها سفينة للدولة الفرنسية.
من زنجبار	5	5.193	
ألمانية	4	5.268	
جنسيات مختلفة	لا شيء	.....	
الجملة	932	265.724	

وينتج عن هذه الإحصائيات أن للبحرية الإنجليزية النصيب الأوفر في الحركة البحرية بميناء جدة. تأتي بعدها السفن المصرية لشركة الخديوية والهولندية والعثمانية وسفن شركة Lloyd النمساوية الهنغارية، وقد قامت برحلاتها بصفة منتظمة مرة بعد مرة في طرقها التي ذكرناها سابقا.

أما السفن الأخرى من إيطالية وفرنسية وزنجبارية فإنها تصل إلى جدة في أيام الحج.

أعتقد أني وضّحتُ بما فيه الكفاية في تقريري عن الحج بتاريخ 9 سبتمبر 1888 كل الظروف والدوافع التي تدفع البحرية الفرنسية إلى التحرك في البحر الأحمر وتجلب انتباه التجارة المرسيلية. ولا فائدة في العودة إلى نفس الموضوع.

التجارة:

إن أهمية جدة التجارية تنقص كل سنة، لقد كانت في السابق الميناء الرئيسي للحجاز ومخزن التجارة في البحر الأحمر مع الحبشة والنوبة والخليج الفارسي والهند وإفريقيا وأوروبا. وإن جملة أرقام الواردات والصادرات يرتفع إلى 40 مليون، وهي اليوم تصل إلى 20 مليون. فإنّ استقرار الإنجليز في عدن وفتح قنال السويس أزعجا التجارة في جدة. فعدَنْ ميناء حرّ على العكس من جدة حيث تكون الأداءات التي تطلبها الجمارك التركية التي تصل إلى 8 في المائة عند الاستيراد ومثلها عند التصدير. وقنال السويس فتح طريقا مباشرًا مع أوروبا ومع الهند ومع

الخليج الفارسي وإفريقيا. وإن استقرار الإنجليز في سواكن واستيلاء الإيطاليين على مصوّع أصابت جدة بالضربة القاضية. وسيكون مصيرها مصير الموانى الأخرى الواقعة على البحر الأحمر، بحيث سوف تنهار تجارتها بسبب انفتاح قنال السويس. ولو لم يكن لها وصول الحجيج إلى مكة وأنها الميناء الذي يصل إليه تموين أرض الإسلام المقدسة، وهي الأرض التي حرمتها الطبيعة وعليها دائمًا أن تترقب وصول قُوتِها من الخارج لتضمن حياة مواطنيها.

الصادرات:

أهم المواد الصادرة عن جدة هي: جلود البقر والغنم والأصداف واللُّبان والقهوة والتمر والحناء وقشور السلاحف والمرجان الأسود والزرابي وغير ذلك بما قيمته 7.000.000 تقريبا.

الواردات:

أهم التجارات المستوردة هي:

من مصر: الحبوب والسكر المكرر.

من أوروبا: القصدير والرصاص والزئبق والنحاس والحديد المموّه بالقصدير والخردوات والسكاكين والزجاج والأواني والسكر المكرر والمشروبات الكحولية والحبوب والأقمشة الحريرية وغيرها الهندية وأخشاب البناء وغيرها.

من الهند: نسيج الموسلين الشفاف والأقمشة الحريرية والمفارش والأرز والقهوة.

من إفريقيا: العاج وريش النعام والمسك والعبيد وغيرها.

من بلاد العرب: التمر والقهوة والعطور.

ومن أمريكا: البترول.

وتقدر الواردات بثمانية عشر مليونا.

العملات والصرف وغيرها:

إن العمليات التجارية في مدينة جدة – ولو كانت هامة – فإنها يتم فيها البيع أو الشراء اعتمادًا على الكلمة، وهذه الطريقة عندهم لا تنتج عنها أبدًا خلافات . أما العمليات البنكية فهي غير معروفة في البلد.

العملات المتداولة هي:

الجنيه (Marie Thérese) قيمته 28 قرشا، والقرش بقيمة 3 فرنكات و72 صنتيمًا. ويسمي الجنيه فرنسا.

الجنيه الياباني يعرف باسم البورون.

الجنيه العثماني: الماجدية قيمته 29 قرشا: 3 فرنكات و86 صنتيمًا.

الروبية الهندية: 13 قرشا= فرنكا واحدًا و 53 صنتيمًا.

أما العملة الفرنسية والإنجليزية والروسية فقيمتها كما يلي:

العملة الفرنسية Napoléon= 148 إلى 150 قرشا حسب قيمة الصرف.

الجنيه التركي = 170 إلى 174 قرشا.

الجنيه الإنجليزي = 186 إلى 190 قرشا.

<u>المقاسات والأطوال:</u>

– ....[47] Sic Endozza= 69 صنتمتر. وهو يستعمل في الأقمشة العادية.

– البندي = 60 صنتمتر وهو يستعمل في الأقمشة الممتازة.

– الذراع = وهو طول الذراع تستعمل لقيس الزرابي.

أما الجمارك فإنها لا تعترف ألا بالمتر مقاسا.

<u>الأوزان:</u>

–الرطل = 430 إلى 450 غرام.

–الأوقية= رطلان.

–القنطار المصري= 100 رطل= 36 أوقية= 43 إلى 45 كيلغرام.

---

[47] كلمة غير مقروءة بالنص.

-المركلية= 12 أوقية (وتستعمل في الحبوب).

-الغرزلة= 24 رطلا ويستعمل في القهوة والصدف والحجارة الكريمة والبخور والشمع.

-الإردب= من 40 إلى 50 كلاع.

– الخرجة = عشرين، وهي تساوي score الإنجليزي وتستعمل في كل انواع البضائع.

-الكيلوغرام= لا يتعامل به إلا عند الجمارك.

أهم البضائع الموجودة في سوق جدة وأثمانها إلى يوم 31 ديسمبر 1888.

– أنواع الرز تصل من كلكتا التي تبعث 300.000 كيس تقريبا. وثمنها 3 جنيهات للكيس. وقد بلغ ثمنها اليوم إلى 5.25 جنيهات بسبب غلاء أجرة النقل وقلة الوارد منه.

– القمح المصري ثمنه 4 و 6 قروش للكيلة.

– القمح الهندي ثمنه بين 5 و6 قروش للكيلة.

– القمح المثين (الفرينة) ثمنه بين 6.75 إلى 8 قروش للكيس الذي يزن 64 كيلوغرام.

– السكر وقد كان يُستورد من مرسيليا في أغلب الأحيان وأصبح يُستورد من ايطاليا ومصر. ففي السنة الماضية أحدثَ معمل تكريره في القاهرة فامتلأ به سوق جدة. وهو إنتاج جيد جدًا وثمنه مناسب. أما الإنتاج الإيطالي من مدينة Trieste فقد أصبح رديئا.

– وتصل إلى جدة للاستهلاك كميات كبيرة من القهوة اليمنية والأمريكية والجاوية. فمن جاوه وحدها تصل من القهوة ما قيمته 800.000 فرنك فيباع بثمن 25 أو 26 جنيه القنطار والقنطار 113 رطل= يساوي 50 كيلوغرام تقريبًا.

– والقهوة الأمريكية تباع بثمن 22 أو 23 جنيها. في حين أن قهوة مُخا اليمنية تباع للخارج وذلك لقلة استخدامها في السوق الداخلية، إذ أن الكثير من أهل البلد لا يستهلكون إلا قشر القهوة والزنجبيل، فيطهونها وتكون ذات نكهة. فقهوة مُخا وتسمى شرقي تصدر عن الجزيرة العربية عن طريق عدن – الميناء الحر – فلا تخضع للضريبة التي قيمتها 8 في المائة والتي تفرضها السلطات العثمانية في البحر الأحمر. ومن المؤسف أن قهوة مُخا تُخلط بأنواع من القهوة الهندية.

– جلود البقر الواردة من عسير وتزن 3.050 كيلوغرام تقريبا تباع بالخرج (أي 20 قطعة) بثمن من 15 إلى 18 جنيه. وجلود الماعز المستوردة من عسير أيضا وزنها رطل واحد (الرطل الإنجليزي) ثمنها من 6 إلى 7 جنيهات الخرج. وأغلبها تباع إلى أمريكا. جلود الغنم من عسير وهي بدون صوف تكون من نوع أدنى فتزن في المتوسط رطلا وربع رطل للقطعة، وتباع بجنيه واحد وثلاثة أرباع الجنيه إلى جنيهين للخرج (20 قطعة). أما جلود الغنم الحجازية والتي تزن الواحدة منها بين كيلوغرامين ونصف إلى 3 كيلوغرامات تباع بسبعة جنيها أو 8 جنيهات للخرج.

– الأصداف التي يقع صيدها في جميع نواحي البحر الأحمر وخاصة حول سواكن ومصوّع. يقوم بصيد هذه الأصداف 300 سنبوك تحمل ما بين 30 و 40 طن، وهي تابعة لميناء جدة وميناء زبيد. وذلك لأن المتساكنين حولهما يقومون بصيد الأصداف. وغالب هذا الإنتاج يُرسل إلى مدينة ترياست بايطاليا ليُصنع منه الأزرار، والباقي يُرسل إلى مرسيليا ولندن. والأصداف الأحسن نوعا ترسل إلى بيت لحم التي اشتهرت فيها الزخرفة بالأصداف، وتباع الأصداف بالفرزلة وهي 24 رطلا (10 كيلوغرام تقريبا) عند ما تكون في حالتها الطبيعية بثمن 3 جنيهات وبثمن 4 جنيهات إذا نُظّفت.

- والصمغ بالجزيرة العربية يتنوع إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول ويسمى الفهمي ذو اللون المائل إلى الأحمر، يُستخرج في بلاد عسير ويباع في محله بثمن 16 جنيها للقنطار (120 رطلا). والنوع الثاني يسمى الشرقي وهو أبيض اللون يأتي أيضا من عسير، ثمنه ما بين 24 و 36 جنيها حسب نوعيته. والقنطار منه 115 رطلا. والنوع الثالث يُسمى ينبعاوي ويُستقدم من المدينة في لون يميل إلى الأبيض في قِطع صغيرة، ثمنه ما بين 25 إلى 37 جنيهًا للقنطار (115 رطلا).

- والذبْل (قشرة السلحفاة) يباع بالمنّ (1 كيلوغرام وعشرة غرامات) بثمن 36 جنيه فرنسي. وهو من 4 إلى 6 جنيهات للمَنّ الواحد.

- وأوراق السَّنَا تباع بجنيه واحد لوزن 72 رطل.

- والحناء المكية - وهي المطلوبة أكثر في الشرق - تُباع بعشرة جنيهات القنطار (وهو 120 رطلا من الحناء المسحوقة).

- الأقمشة الصوفية والقطنية يقع استيرادها من منشستر (بانجلترا) وقماش الستان (Satin) الصيني من ألمانيا والأقمشة الملوّنة من النمسا. وسوريا ترسل أقمشة الحرير ذات اللون الواحد وأما الأقمشة المضلعَة فإنها تأتي من الهند .

- **خيوط التطريز**: تأتي الأنواع الدنية من بافاريا Bavaria بألمانيا والأنواع الراقية من ليون Lyon بفرنسا.

- **البلوريات** : من بلجيكا ومن بافاريا . والخزف الصيني من النمسا.

- أنواع الصابون من سوريا.

- **البترول** : تستقبل مدينة جدة في كل سنة من أمريكا قرابة الأربعين ألف برميل من البترول بثمن 10 فرنكات للبرميل. وقد وقعت محاولات كثيرة لتعويد الناس في الحجاز باستعمال البترول من نوع Bakoui ولكن باءت المحاولات بالفشل بسبب سوء التعبية في البراميل الرديئة الصناعة.

ـ **أعواد الثقاب الكبريتية** : يقع استيرادها من النمسا ونوعها سيء، تباع بثمن 13 جنيهًا للصندوق الذي يحتوي على 200 درزن، الثقاب الذي يكون من نوع Sallon يباع بثمن 18 جنيهًا للصندوق الذي 240 درزن وهي ذات الاستعمال المنزلي، ملاحظة خاصة لابدّ أن نشير إليها وهي أن أعواد الكبريت النافقة هنا هي التي تكون رؤوسها حمراء.

ـ **أخشاب البناء** : تُستورد من سنغفورة من أشجار الصنوبر الحمراء المفضلة عند أهل الحجاز بسبب مقاومته لأثر الشمس والرطوبة.

ـ **تجارة الزرابي الفارسية** : تأخذ هذه التجارة حيِّزًا هاما من المبيعات يمكن أن يقع فيه التعامل بالملايين العديدة. يزيدها رواجًا الحج السنوي إلى مكة. تأتي هذه الزرابي من Lingha وبندر عبّاس. وهي مستوردة من الخليج الفارسي ، وأغلبها يباع لأهل المغرب العربي والمصريين وغيرهم.

وتتنوع هذه الزرابي إلى : العربية والأفشارية والعباسية والبولاقية والفرغانية.

فالعربية هي أحسن الأنواع بسبب رقة صوفها ورسومها المختارة ودقة صناعة خطوطها وألوانها الناصعة والمصبوغة صباغة طيبة، وخيوطها مصبوغة باللون الأسود الغامق. والزربية من النوع العربي التي طولها 3 أمتار وعرضها متر ونصف تباع بثمن بـ [illegible] فرنكا و 90 فرنكا.

والزربية الأفشارية هي أيضا ذات منظر مريح للعين برسومها وألوانها، ولكن صوفها أقلّ رقة ونسيجها أقلّ دقة ودوام وخيوطها بيضاء.

والزربية العباسية تأتي في الدرجة الثالثة، خيوطها سوداء مثل العربية وصوفها عادي ورسومها غير متقنة. يشتريها في الغالب السودانيون.

والزربية البولاقية تُشبه العباسية إلا أنها أقلّ قيمة.

والزربية الفرغانية ذات منظر جميل برسومها وألوانها وخيوطها من ونسيجها من الصوف إلاّ أن ألوانها تنطفئ ولا تدوم.الواحدة منها التي يكون طولها 3 أمتار وعرضها متر ونصف ثمنها بين 35 و 40 فرنكا.

وقد يأتي بعض الحجيج بالزرابي من داغستان ولكنها لا تجد رواجًا.

ومن بلاد الهند يقع استيراد الزرابي القطنية برسومها الجميلة وألوانها الزرقاء والحمراء. وهي عادة تُشترى للاستعمال المحلي بالحجاز.

ونجد في جدة الزرابي الصغيرة (الحنبل) تُصنَع قريبا من بغداد وفي مختلف نواحي الجزيرة العربية وتكون من وبر الجمال، وهي متينة في الاستعمال وثمنها زهيد.

نستنتج من هذا أن التجارة الفرنسية كأنها منعدمة في بلاد الحجاز. فقديما كانت مرسيليا تبعث السكر والصابون، ومدينة ليون Lyon ترسل أقمشة الحرير . وأصبحت الأقمشة تأتي من النمسا (شركة Lebeuf) رغم أن الصناعة النمساوية تجعل الأقمشة ذات شكل جميل إلا أنها غير حسنة لما يضعونه عليها من النشا والمصطكى وأثمانها رخيصة جدا. وإن بلاد النمسا وبلاد الساكس تزود الحجاز سنويًّا بما تكون قيمته أكثر من خمس مائة ألف فرنك من قماش الساتان Satin والأقمشة الصوفية بأثمان تساوي نصف ثمن الإنتاج الفرنسي.

أما السكر فإن معامل تكرير بمدينة مرسيليا أخطأت برفضها الاستجابة لرغبات الزبائن في المشرقفي ما يتعلق بأشكال قطع السكر وتلفيفها. ولذلك تُرك إنتاجها ولم يقع الإقبال عليه. ففي سنة 1887 كان معمل تكرير السكر الذي وقع تشييده بالقاهرة ــ رغم حسن إنتاجه ــ يقوم بصعوبة إنتاجنا وإنتاج مدينة ترياست Trieste فإن أهل الحجاز لا يعرفون أوزان بضاعة السكر ولا أنواع الإنتاج. وفي سنة 1888 وصل السكر المصري إلى جدة بقطعه ذات 2 كيلوغرام وعليها علامة الصناعة وهي الأسد فقبل السكر المصري في الاستهلاك المحلي ثم غطى أنتاج غيره. لقد عرضتُ هذا المثال لأدلل على أن منظر البضاعة وشكلها يلعبان دورًا أساسيا في المبادلات التجارية مع بلاد الشرق. وعلى التجارة الفرنسية أن تستجيب لطلبات أهل البلد إذا أرادت أن تستعيد مكانتها التي أضاعتها في أسواق الشرق والبحر الأحمر خاصة. يضاف إلى ذلك سبب آخر لعدم نجاحنا وهو خلو بلاد الحجاز من الوكالات التجارية الفرنسية. فإن

التجارة الأوربية في جدة هي بين يدي دولتين هما هولندا والنمسا وتربحان الصفقات الناجحة. ونتج عن ذلك ازدهار التجارة الهولندية والألمانية والنمساوية التي أصبحت متوافرة. إذن متى ستقرر فرنسا مدّ مكانتها وأثرها الاقتصادي خارج بلادها فننقل جهودنا للخارج وننقل ذكاءنا وكفاءاتنا المتنوعة ونجعل الناس هنا يعرفون إنتاجنا ويثمّنونه. وعلينا أن نكر ونعيد القول بأن رأس المال الفرنسي يجب أن يتحرك ويصبح أكثر مفاجأة في التجارة والإنتاج وذلك ببذل جهود قنصلياتنا وموظفيها.

إن من أسباب انحطاط تجارتنا هنا أنها لم تكن بين أيدٍ فرنسية. فليس لأجل رخص أسعار البضائع الألمانية والنمساوية والإنجليزية أصبحت تنافسنا منافسة عنيفة في هذا النصف الثاني من العالم وإنما السبب هو أن إنتاجهم يسوّق بأيدٍ وطنية منهم. وإننا نخطئ إذا ظننا بأن الاقتصاد الفرنسي يمكن أن يأمل في تطور طبيعي والحال أن واسطتنا في الأسواق أناس غير فرنسيين لا يهمهم نجاحنا بل هم من جهات تنافسنا. فتكليف الأجانب بيع منتجاتنا يُعتبر عملاً متهورًا وغير مثمر. فالمسألة الهامة هنا ليست ثروات الفرنسيين فقط وإنما الأمر يتعلق بتطوير صناعتنا وبمستقبل أسطولنا البحري.فسوف يقدّم الأجنبي إنتاج بلاده على إنتاج فرنسا وهو ما يُنقِص قوتنا الاقتصادية.

سيدي يشرفني أن تقبلوا مني هذه المعلومات الإحصائية والتجارية التي يحويها هذا التقرير. إنها أقرب إلى الحقيقة والواقع رغم عدم وجود الوثائق. فإن الجمارك هنا تمتنع من فتح سجلاتها للاطلاع، لأنها ستكشف حقائق السرقات والمخالفات. فهم يرفضون ذلك بصفة قطعية بسبب سوء نياتهم ومشاعرهم المعادية لكل شخص نصراني.

وقد جمعت هذه المعلومات التي يحويها هذا التقرير من مصادر ثلاثة:

- الوكالة البحرية النمساوية الهنغارية واسمها Lloyd .
- وكالتان تجاريتان أوربيتان في مدينة جدة.
- الإدارة الصحية في اللجنة الطبية الدولية وموظفوها.

هذه المصادر مكنتني من الأرقام الرسمية للحركة الملاحية في ميناء جدة.

الإطار الجامع لحركة الملاحة في ميناء جدة من سنة 1877 إلى سنة 1888

وفيه جنسيات السفن وأعدادها في كل سنة مع بيان حمولتها ثم المجموع العام

السنة	إنجليزية		مصرية		نمساوية		هولندية		فرنسية		إيطالية		عثمانية		ألمانية	
	عدد السفن	حمولتها	عدد السفن	حمولتها	عدد السفن	حمولتها	عدد السفن	حمولتها	عدد السفن	حمولتها	عدد السفن	حمولتها	عدد السفن	حمولتها		ح
1877	101	92890	58	36.685	35	37.624	2	2994	2	2262	4	3516	•	•	1	7
1878	124	123034	53	25.728	29	33493	1	1403	•	•	10	9941	•	•	1	4
1879	116	118946	80	45.801	26	34476	•	•	3	1538	11	7718	1	644	3	3
1880	132	142.250	116	74.817	34	42357	1	1473	9	7818	25	17031	5	3944	1	4
1881	129	150026	69	42722	27	33538	•	•	1	72	13	9376	4	2958	•	•
1882	92	103253	43	23666	25	27716	2	2920	4	4161	•	•	1	393	•	•
1883	75	86526	67	38479	16	17228	21	38582	6	6425	•	•	3	3514	•	•
1884	78	92924	56	36245	24	29244	32	71815	17	20161	1	1818	1	1248	2	4
1885	90	107993	71	44064	26	31659	25	60987	3	4164	10	10.029	6	6261	4	4
1886	114	139083	59	37614	43	47009	16	38237	9	16153	4	3275	5	1990	4	1
1887	90	102490	155	39553	54	51976	20	49120	8	10262	1	666	737	42617	•	•
1888	80	94911	71	43110	26	31652	15	37829	6	5281	5	4086	720	000	4	8

* * * * * * * * * * *

رسالة [48] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 20 جويلية 1859 م / 20 ذي الحجة 1275 هـ.

تقرير وإحصائيات

حسب المعلومات التي جمعتُها – وأنا أعتقد صحتها وضبطها – أقدّم لكم الرقم التقريبي للأشخاص الذين قاموا بالحج إلى مكة في سنة 1859م ، وهم الذين قدموا من بين كافة المؤمنين بالإسلام .

(48) Nantes نشرة رقم 1. الملف رقم 1 الصفحة 112 – 117 .

عن طريق البحر:

الحجيج العــرب والأتــراك:

الواصلون إلى جدة عن طريق السويس	7285

مغاربة وجزائريون وتونسيون:

الواصلون إلى جدة عن طريق السويس	1000
حجيج قدموا من سواكن ومصوّع	675
حجيج قدموا من اليمن	840
حجيج قدموا من الهند وجاوة وسومطرا	6200
حجيج قدموا من الخليج الفارسي (العربي)	850
حجيج قدموا من مختلف مراكز البحر الأحمر	1000
المجموع :	17850

عن طريق البر:

قوافل [illegible] وسوريا	2000
قوافل مصر	3000
قوافل الشرق من عمان وغيرها من الخليج الفارسي	1500
قوافل بغداد	4000
قوافل المدينة	5000
قوافل عسير	1000
قوافل بلاد نجد	1000
قوافل بلاد صنعاء	1000
قوافل بلاد شمّر	1000

مع مجموعات أخرى قدمتْ من داخل الجزيرة العربية وسكان مكة

المجموع 16150

الجملة العامة 50000

لا أستطيع أن أضمَنَ صحة هذه الأرقام بصفة دقيقة ولكن - أعيدُ ما قلتُه سابقا — أعتقد أنه يمكن قبول صحة هذه المعلومات التي وصلتني عن مصادر متعدّدة . أمّا ما يخصّ وصول الحجيج المذكورين بعدُ إلى جدة فهي معلومات محققة إذ بلغتني منذ وصولي إليها. فقد نصحتُ مدير المرسى بأن يضع تقريرا مضبوطا عن كل المسافرين القادمين في مختلف السفن. ومن السجلّ الرسمي الذي وضعه وضبطه هذا الموظف استفدتُ الأرقام التي ذكرتُها أعلاه. أمّا ما يخصّ الحجيج القادمين إلى مكة في القوافل فقد نقلتُ مختلف المعلومات التي وصلتني والأرقام هي متوسطة وتقريبية .

إن ما يدفعه الحجيج القادمين إلى مكة من ثمن الركوب عن طريق البحر يكون بالضرورة مختلفا بسبب اختلاف بُعد البلاد التي انطلقوا منها وأنواع السفن التي يستقلونها لنقلهم.

وهذه قائمة فيها متوسط أثمان النقل:

من السويس إلى جدة في مركب من مراكب البلاد وتدوم الرحلة ما بين 15 و 18 يوما....... 60 قرشا

من السويس إلى جدة في باخرة من الشركة المجيدية، وتدوم خمسة أيام :

— في الدرجة الأولى (في غرفة) 2250

— في الدرجة الثانية (على سطح الباخرة)... 750

من السويس على سفن شراعية تدوم رحلتها ما بين 5 و 8 أيام.

وهذه السفن وردتْ من المحيط ووصلت إلى السويس لتضع حمولتها من الفحم أو التراب وهي تنقل الحجيج إلى جدة ثم تذهب لتمرّ من المضيق (مضيق باب المندب).... 120

من قصير بمركب عربي 40

من سواكن	15
من مصوّع	30
من سواحل اليمن	30
من الهند وجاوة على مراكب كبيرة	450
من الخليج الفارسي (العربي) على مراكب كبيرة	200
من الخليج الفارسي (العربي) على مراكب عادية	120

ثم إنّ كل حاج عند انطلاقه من بلده عليه أن يكون مُزوّدًا بما يحتاجه من طعامه خلال الرحلة وليس له الحق إلاّ في قسط من الماء . ويوجد عدد هام من بين الحجيج ممن يجمعون إلى قصد الحج غرضًا آخر هو القيام ببعض الصفقات التجارية من بيع بعض البضائع التي يأتون بها ليبيعوها في الحجاز ويبادلون بها بضائع أخرى يعودون بها إلى أوطانهم، وعمومًا فإن الحاج لا يمارس التجارة بمفرده بل يشترك فيها مع بعضٍ من أهل بلده أو أهل قبيلته ممن يجتمعون معه في رحلتهم ومعهم بضاعاتهم وأغراضهم.

وعندما يصل الحجيج إلى جدة يسكنون مساكن يسمونها " وكالة " فيتكدّسون بأغراضهم عشرة أشخاص أو خمسة عشر شخصا في غرف لا تزيد مساحتها على 25 قدمًا مربّعا وهؤلاء هم من المعرب. أما المغاربة والجزائريون والتونسيون فإنّهم يحبّذون أن ينصبوا خيمهم التي يأتون بها معهم في ساحات المدينة وشوارعها. ومن عادة الحجيج أنهم لا يقيمون بجدة أكثر من 48 ساعة. وأول ما يسعى إليه الحاج هو أن يبحث عن وسيلة رحلته إلى مكة وهو الجمل. وثمن كراء الجمل من 50 إلى 60 قرشًا (10 إلى 12) ليركبه بين جدة ومكة وحمولته تصل إلى ثلاثة قناطير (300 كلغ) . وفي الغالب فإن جملًا واحدا يكفي لحمل أمتعة اثنين من الحجيج. وإذا كان الحاج عاجزا أو ذا عاهة تمنعه من السفر راجلا إلى مكة فإنه يركب في شقدف الجمل الذي توضع عليه زربية أو حشيّة. أما النسوة فإنهن يسافرن عادة بهذه الطريقة في الشقدف. كما يقع كراء الجمل وقائده بثمن يتراوح ما بين 60 و 70 قرشًا.

إن السفر من جدة إلى مكة في قافلة يتمّ في 28 ساعة من الليل حتـــى يتحاشـــى المسافرون الحرارة. يخرج الحجيج من جدة في الساعة الرابعة بعد الزوال ويصـــلون إلى حَدَّة في صباح اليوم الموالي ويقيمون هنالك إلى الساعة الرابعة بعد الـــزوال منـــه حيث يواصلون السير إلى أن يحلّوا بمكة في أول الصباح. ومدينة حَدَّة تقع عند ثلثـــي الطريق بين مكة وجدة. أما الحجيج الذين يسافرون فُرادى فيصلون بأسرع من ذلك ولا يقضون في سفرهم أكثر من 18 ساعة ولا يقفون في حدة إلاّ ثلاث ساعات.

إن وصول الحجيج إلى جدة يسبّب حركة في الملاحة (توضيح حركة هذه السنة):

السفُن القادمة من الهند: 24

تحت راية إنجليزية 21

تحت راية هندية 03

السفُن القادمة من سنغفورة وجاوة وسومترا :

تحت راية إنجليزية 11

تحت راية عثمانية 5

تحت راية هولندية 3

البواخر القادمة من السويس: 9

تحت راية عثمانية 8

تحت راية فرنسية 1

البواخر القادمة من عدن :

تحت راية عثمانية 2

البواخر القادمة من سواكن :

تحت راية عثمانية 2

المراكب العربية الواردة من السويس وقصير
وسواكن ومصوع ومرافئ اليمن وبعض المرافئ
الخارجة عن مضيق باب المندب 130
المجموع 188

إن أغلب السفن الشراعية الكبيرة التي تنقل الحجيج تبقى راسية بمرفإ جدة إلى نهاية موسم الحج. سواء تلك السفن التي خُصِّصتْ لرحلتيْ القدوم والإياب أو تلك التي التزمت بنقل الحجيج القادمين فقط فإنها تعود وتحمل منهم من كان قاصدا مصر أو الخليج الفارسي (العربي) أو بلاد الهند أو جُزُر المحيط.

وعند نهاية موسم الحج يغادر كل الحجيج – إلاّ النادر منهم – بلاد الحجاز ويعودون إلى بلدانهم. أما الذين يتخلفون ولا يعودون فهم الذين لا يقدرون على الرجوع بسبب ما أصابهم من التعب أو المرض فيتحمّلون نتائج ذلك من حياة متعبة صعبة. وكثيرًا ما يكون سبب امتناعهم من السفر ما أصيبوا به من الفقر وضيق ذات اليد ، وفي كلا الحالتين فإن رحلة رجوعهم تؤجّل إلى السنة الموالية .

إنّ عدد الجزائريين الواصلين إلى مكة للحج هذه السنة قرابة الألف حاج، ولم تمكنّي معرفة عددهم المضبوط بسبب أنهم لا يتقدمون إلينا ولا يتّصلون بالقنصلية إلاّ عندما تحوجهم بعض المضايقات .

وفي نهاية هذا التقرير الذي طال أرجو من معاليكم الإذن لي بإمدادكم بقائمة تعرض أعداد الحجيج إلى مكة من بداية هذا القرن، وهي غاية ما حصلتُ عليه:

– حسب قول علي باي .... 1807م........ 83000 حاج
– حسب قول بركهارت (Brukhart)...... 1814م ...... 70000 حاج
– حسب قول بورتن (Burton) .... 1853م .... 50000 حاج
– حسب تقرير السيد...... موظف فرنسي بجدة: 1854م...60000 حاج
1855م.. 80000 حاج
1856م ... 120000 حاج

ـ حسب معلومات أخرى .... 1857م ... 140000 حاج

1858م ... 160000 حاج

ـ وأخيرًا في هذه السنة .... 1859م ... 50000 حاج

بناءً على أقوال أهل البلد فإن هذا النقص الكبير في عدد حجـاج هـذه السـنة (1859م) يعود بصفة أساسية إلى الحوادث التي وقعت بجدة في السنة الماضية، ويعود النقص أيضًا إلى الخوف من مرض الكوليرا الذي أصاب الحجيج في السنة الماضـية 1858م .

****

رسالة [49] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (الإدارة القنصلية) رقم الرسالة 4 . وهي مؤرخة بيوم 23 جويلية 1888م / 14 ذي القعدة 1305 هـ. وبجانب الورقة الأولى عنوان جانبي نصه: تنظيم الإدارة الطبية العثمانية في البحر الأحمر.

سيدي الوزير:

تـ الإدارة الصحية العثمانية في البحر الأحمر تتكون من ثلاث إدارات: إدارة بالحجاز وأخرى باليمن وثالثة بكمران.

في الحجاز تتكون الإدارة الطبية من:

1/ بجدة: طبيب مراقب وطبيب معاون. يقوم بهذين الوظيفين طبيبان خريجان من كلية باريس أحدهما نمساوي والآخر فرنسي.

2/ طبيب في مكة.

---

(49) Nantes البكرة رقم 3، الملف رقم1، الصفحات 14 ـ 16.

3/ طبيب بالمدينة. وكلاهما مسلم.

4/ طبيب في مركز أبي سعد الصحي.

5/ مندوبون صِحّيون في ينبع والليث ورابغ والقنفذة. وفي موسم الحج يُلحَق طبيب بينبع.

– تتكون الإدارة الطبية باليمن من طبيب بالحديْدة وبمندوبيْن طبييْن في مخا واللّحيّة.

– أما الإدارة الطبية في كمران فهي وقتية لا تعمل إلاّ في موسم الحج. وتتألف من طبيب مراقب وأربعة أطباء بالإضافة إلى موظفين.

وأبو سعد وكمران هما مركزا حجر صحي للسفن والبواخر القادمة من خارج باب المندب في طريقها إلى جدة.

– يضاف إلى ذلك في موسم الحج تقوم لجنة طبية بمصاحبة الحجيج في عرفات وفي وادي منى وعليها أن تضمن حفظ الصحة في تلك المضارب وتقوم بالمراقبة والتطبيق الدقيق لكل تنظيمات المسالخ وتنظيف بيوت الخلاء ومدافن بقايا الحيوانات من الأضاحي وغيرها.

وفي مدينة جدة يوجد مستشفى فيه بعض الرعاية، ولكنه لا يكفي في موسم الحج. فلا يستطيع أن يستوعب في كل الظروف إلا مئة مريض. وأغلبهم من جنود الحامية العسكرية الذين يستوعبون – بصفة عامة – أربعين في المائة من الأماكن المخصصة للمرضى. ويدير الخدمات الصحية طبيب عسكري عثماني.

ومحصلة هذا التقرير السابق أنّ الخدمات الصحية العثمانية في البحر الأحمر منظّمة تنظيما مناسبًا وإذا لفتنا النظر للكفاءة المهنية لهؤلاء الأطباء وأخلاقياتهم ونزاهة موظفيها في المراقبة وتطبيق النظام فإن الوضع ينطبق عليه المثل القائل : بقدر ما تكون قيمة الإنسان تكون قيمة حاجاته: Tant vaut l'homme, tant vaut la chose

ولكن أعمال الموظفين عمومًا هنا ناقصة نقصا كبيرًا من جميع النواحي. وهذا الحكم لا ينطبق على الطبيبيْن الأوروبييْن بجدة.

وعلى كل حال فإنه يبدو أن موسم الحج سنة 1888م/ 1305هـ وقع في ظروف صحية طيبة. فإن المحجر الصحي بكمران يُؤوي من 60 إلى 80 مريضا في حين أنه منذ يوم 15 جوان ورد عليه أكثر من عشرين ألف حاج من الهنود والماليزيين والجاوة دخلوا البحر الأحمر في طريقهم إلى جدة. ومن السويس عَدَدْنا قرابة الأربعة آلاف مصري، وثلاثة آلاف تركي، وألفيْ مغربي وجزائري وتونسي نزلوا في ميناء ينبع وجدة.

إن الوضع الصحي داخل مدينة جدة أقل قيمة وأهمية، فخلال الأيام الخمسة عشر الأولى من شهر جويلية مات العديد من ضحايا مرض حمَّى التيفويد. فالحرارة مفرطة ومقياس الحرارة يصل إلى ما بين 38 درجة و40 درجة، والرطوبة في الهواء تصل إلى ما بين سبعين وخمسة وسبعين درجة. والجانب الفظيع واللاصحي هو هذا الجو المنهك وهذه الحرارة والرطوبة التي تتواصل ليلا ونهارًا، مما يجعل تعب النهار لا تخففه راحة بالليل، مع مضيٌ الليالي العديدة دون نوم.

إن مُعاوني الشاب الموظف (بالقنصلية) السيد Blonchon ما زال مريضا منذ أصيب بحمى التي أوشكت أن تقضي عليه في شهر مارس الماضي. وهو موظف يقوم بعمله بذكاء وإخلاص يجعلني أعبر له - بكل سرور - عن خالص احترامي.

أما صحتي أنا شخصيًا فإنها بطبيعة الحال تعاني هذا الطقس المنهك الذي أتحمّله دون راحة، وإن الزمن يمرّ بسرعة إلى أقسى أيام الصيف.

آمل أن يتحمل مزاجي وتتحمّل قُوايَ ذلك لنصل في النهاية غايتي وهي إخلاصي في عملي وصدق إرادتي وعزيمتي.

تقبّلوا سيدي الوزير ....

****

رسالة [50] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (الإدارة السياسية) رقم الرسالة 3 . وهي مؤرخة بيوم 16 جويلية 1888م / 7 ذي القعدة 1305 هـ. عليها عنوان جانبي نصه: إقامة الاحتفال بالعيد الوطني (14 جويلية 1888) مع ذكر الحج لسنة 1888 ثم إشاعات مكذوبة عن سفر شيخ السنوسية وأخبار عن هجوم الأعراب على قافلة حجيج .

سيدي الوزير

لقد تمّتْ إقامة احتفال العيد الوطني (الفرنسي) 14 جويلية بكل أبّهة لم يسبق لها مثيل في مدينة جدة. فإن جميع القنصليات رفعتْ أعلامها الوطنية. كما تلقيتُ الزيارة والتهاني من السلطات المحلية ومن القناصل ومن وجهاء الجزائريين المقيمين في هذه المدينة وفي مكة ومن وجهاء مكة الذين قاموا بالسفر إلى جدة للحضور. وفي الليل كانت القنصلية مضاءة لمّاعة. وقد دعوتُ إلى القنصلية لشرب الشاي القائم مقام وزملائي القناصل والأشخاص الرئيسيين من الجالية الأوروبية القليلة.

ـ اليوم الأول من شهر جويلية الحالي بدأ قدوم الحجيج من الشمال فقط والباخرة التي ركبتها وقدمتْ عليها إلى جدة أنزلت الحجيج الأوائل من المغاربة والأتراك والفرس. كما وردت حشود كثيرة من الحجيج وخاصة من بلاد الهند. أما عدد المغاربة فإنه يصل إلى ثلاثة آلاف حاج تقريبا منهم 800 بين جزائريين وتونسيين . وإننا نترقب وصول الباخرة الفرنسية " غالية " (Gallia) من شركة (

---

(1) Nantes البكرة رقم 3- الملف رقم1- الصفحات 7 ـ 9 .

Fabre) بمدينة مرسيلية ناقلة ألفا من مواطنينا من إفريقيا الوسطى. كما وقع الإعلان عن وصول الباخرة " بُرْجُديا " (Bourgoudia) لنفس الشركة.

لقد علمتُ بالخبر الذي انشغلتُ منه حيث قيل إن الشيخ المهدي السنوسي ينوي السفر إلى مكة. وأظنّ أنها أخبار غير صحيحة، فإن مريديه ووكيله بمكة أخبروا بأن الرجل الصالح ساكن الجغبوب لا ينوي القدوم إلى الحجاز هذه السنة، وكيف يأتي المهدي إلى البلد الذي طُرد منه والده وإن طريقته ستلاقي المعارضات المذهبية الدينية. بالإضافة إلى المعاداة التي يحملها ضدهم شريف مكة. فهل سيضع بنفسه رقبته في الحبل؟ خاصة في هذه الأيام التي أصبح فيها التوافق التام واضحًا بين الشريف عون والوالي صفوة باشا، والاتفاق بينهما أمرٌ نادرٌ ويكون خطيرًا على كل مَن يخالفهما ويعاديهما من أولائك الذين لا زالوا يتذكّرون مقتل مدحت باشا. وهذا الأمر يشير إلى أنّ السلطان العثماني يمكن أن يتخلّص بالقتل ممن يُزعجه من الأشخاص ولو في أرض الإسلام المقدسة.

وقد كان الشيخ السنوسي رجلا مزعجًا كثيرا وذلك بحربه ومعاداته التي يُعلنها ضد الحضارة الأوروبية. فإنه لا يعادي غير المسلمين فقط وإنّما يتّهم أيضا سلطان إسطنبول بأنه يتناسى واجباته ويستوحي من أوروبا النصرانية سياسته وتجارة بلده وأخلاق المجتمع المسلم.

حدثت أولى اعتداءات البدو ضد قوافل الحجيج يوم أول أمس على بعد ستة مراحل من جدة رغم وجود مراكز الجيش في ما بين جدة ومكة فسُلب ثلاثون جملا محمّلا بالأغراض والبضائع، من بينها سبعة جمال تحمل القمح الموجّه من الدولة (العثمانية) إلى شريف مكة تمت سرقتها. كما سقط موتى وجرحى من الجانبين وخرجتْ فرق الجيش متوالية من جدة ومن مكة لملاحقة البدو. ويبدو أنّ السلطات العثمانية مستعدة للتحرك بصفة حازمة لتلقنهم درسًا أولا يكون صارمًا وقاسيا وذلك خلال موسم الحج لسنة 1888م / 1305 هـ كما وقعت بعض الهجومات المتقطعة من البدو حوالَيْ المدينتَيْن.

****

رسالة [51] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجّهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (الإدارة السياسية) رقم الرسالة 4 . وهي مؤرخة بيوم 18 جويلية 1888م / 9 ذي القعدة 1305 هـ. وعليها عنوان جانبي نصه: لا لزوم لإقامة مركز ديني (مسيحي) بجدة.

سيدي الوزير:

في رسالتكم المؤرخة بيوم 30 ماي الماضي شرّفتموني بالحديث عن إقامة رجل دينٍ كاثوليكي في جدة، ودعوتموني إلى أن أقدّم ملاحظاتي الشخصية التي تكون نتيجة لدراسة الوضع بنزاهة.

وللجواب عن سؤال معاليكم أعرض رأيًا مخالفًا لما في الرسالة المشفّرة الواردة بتاريخ 25 جوان التي تعلمني بأنّ الدعاة إلى تعيين رجل دين كاثوليكي في مركز الإسلام هم أنفسهم اعترفوا بخطورة ذلك وقالوا: إن المشروع تأجّل إلى وقت آخر.

سيدي الوزير. أنني من بين أولئك الذين يعتقدون أهمية المكانة الكاثوليكية لفرنسا في بلاد الشرق وضرورة الحفاظ عليها وتنميتها. وهذا ما يجعلني أقف معارضًا لموقف الإيطاليين والنمساويين الذين يبذلون جهودهم في لأخذ مكانة فرنسا في حماية الكاثوليكية.... [52]

****

---

[51]) Nantes البكرة رقم 3 الملف رقم 1 الصفحة 10 ـــ 11.

[52]) بقية النص غير واضح الكتابة.

رسالة [53] صادرة عن قنصل فرنسا بجدة موجهة إلى وزير الخارجية الفرنسية (الإدارة السياسية) مؤرخة بيوم 18 جويلية 1888م / 9 ذي القعدة 1305 هـ موجهة إلى الوزير عن طريق إدارة الشؤون السياسية.

سيدي الوزير :

في رسالتكم المؤرخة بيوم 30 ماي الأخير كلفتموني - يا سيدي الوزير - ببحث مشروع إقامة رجل دينٍ مسيحي كاثوليكي في مدينة جدة، ودعوتموني لإبداء ملاحظاتي الشخصية التي أبديها لكم الآن بعد النظر في الأمر بضمير صادق.

وإني على استعدادٍ للإجابة عن هذا الأمر برأي مخالف لهذا الاقتراح. عندما وصلتْ الرسالة المشفرة المؤرخة بيوم 25 جوان لتعلمني أنّ الإشاعة لهذا الخبر دلتْ على وجود خطر يواجه وضع رجل دين كاثوليكي في مركز الإسلام وأن تحقيق هذا المشروع وقع تأجيله إلى وقت مناسب.

سيدي الوزير: إنني من المؤمنين بأن فرنسا يجب أن تكون نصيرة الكاثوليكية في الشرق وأومن بضرورة المحافظة على ذلك وتقويته وتشجيعه. وفي نفس الوقت أرى أن نواجه تحرّكات الإيطاليين والنمساويين الذين يبذلون كل جهودهم لإقصاء فرنسا في مجال العمل الكاثوليكي الذي يعدّ عملا له أثر نفسي وسياسي في صالح فرنسا.

وهكذا فإن رأيي المخالف للمشروع لم يكن مستوحًى إلاّ من اعتبارين اثنين:

أولهما، بناء على نظركم الثاقب الذي أبدتموه في خطورة تسمية أحد رجال الدين في هذه المنطقة من بلاد العرب.

ثانيهما: عدم مناسبة إنشاء هذا المركز الديني الذي لا يسكنه إلاّ خمسة عشر شخصا كاثوليكيا، ستة منهم ليسوا على استعداد للقيام بشعائرهم الدينية. ولم يكن

---

[53] Nantes علبة رقم 3، الملف رقم 1 الصفحة 10 – 11.

مفيدًا إثارة قضية لا طائل وراءها وهي تثير إشكالات سياسية وصرف ميزانه مالية لا فائدة منها

****